

قصص

هرمان ملفيل

# بينيتو سيرينو

حكاية طويلة من «حكايات الساحة»



ترجمة: توفيق الأسيدي



# بينتو سيرينو

## حكاية طويلة من «حكايات الساحة»

[مكتبة الحبر الإلكتروني](#)  
[مكتبة العرب الحصرية](#)



اسم المؤلف: هرمان ملفيل

Author: Herman Melville

عنوان الكتاب: بينيتو سيرينو - حكاية طويلة من «حكايات الساحة»

Title: Benito Cereno - The Piazza Tales

ترجمة: توفيق الأسدي

Translated by: Tawfiq Al-Asadi

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

Cover Designed by: Majed Al-Majedy

الناشر: دار المدى

P.C.: Al-Mada

الطبعة الأولى: 2019

First Edition: 2019

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Al-Mada

---





## دار المدى للإعلام والثقافة والفنون

بغداد: حي أبو نؤاس - محلية 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 770 8080 800 + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا - شارع ليون- بناية منصور - الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017 + 961 175 2616 + 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد - متفرع من شارع 29 أيار

almadahouse@net.sy

+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275 + 963 11 232 2289

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.



هرمان ملفيل

بينيتو سيرينو

حكاية طويلة من «حكايات الساحة»

ترجمة: توفيق الأسدي







## هرمان ملفيل

ولد هرمان ملفيل عام (1819) في نيويورك. وقد حرمه إفلاس أبيه التاجر ثم وفاته عام (1832) من أن تكون له مهنة مستقرة، وتسبب ذلك في غربته الدائمة عن حياة تقليدية متفائلة. بدأ بالتعليم في المدارس، ثم أبحر إلى ليفربول وشارك في رحلة بحرية لصيد الحيتان في المحيط الهادي. عند وصوله إلى جزر الماركيساس، هجر سفينته، وعاش هناك لمدة شهر بين سكان الجزيرة الأصليين (تايبي)، وهم من أكلة لحوم البشر. ثم أخذته سفينة صيد حيتان أسترالية إلى تاهيتي حيث سُجن مع بقية أفراد الطاقم بتهمة التمرد، ولكنه هرب وقضى بضعة أشهر وهو يعمل أعمالاً مختلفة. ثم أخذته سفينة ثالثة لصيد الحيتان إلى هاواي حيث عاش هناك بضعة أشهر قبل أن يعود إلى وطنه. ومن هذه المغامرات استوحى رواياته وقصصه وحكاياته. ومن أشهر رواياته «موبي ديك» التي ترجمها إلى العربية الراحل الدكتور إحسان عباس. وتوفي هرمان ملفيل عام (1891) دون أن يعرف الشهرة التي استحقها.

من أعماله:

1. تايبي (1846) رواية
2. أومو (1847) رواية
3. ماردي (1849) رواية
4. السترة البيضاء (1850) رواية
5. موبي ديك (1851) رواية
6. حكايات الساحة:

- الساحة

- بارتلبي

- بينيتو سيرينو

- رجل قضيب البرق

- الجزر المسحورة

- برج الجرس



## بينيتو سيرينو

في عام (1799)، أرسى الكابتن أمازا ديLANO، وهو من سكان دكسبري في ماساتشوستس، سفينته الكبيرة الخاصة بصيد الفقمات والتجارة عموماً، وهي تنقل حمولة ثمينة، وذلك في ميناء سانتا ماريا... وهي جزيرة صغيرة صحراوية غير مأهولة تقع باتجاه الامتداد الجنوبي للشاطئ التشيلي الطويل. وقد توقف هناك للتزوّد بالماء العذب.

في اليوم الثاني، بعد الفجر بقليل، وفيما كان مستلقياً في مضجعه على السفينة، نزل مساعده إلى قمرة ليبلغه أن سفينة غريبة كانت على وشك الدخول إلى الخليج. في ذلك الحين، لم تكن السفن كثيرة في تلك البحار كما هي الآن. نهض وارتدى ملابسه، ثم صعد إلى ظهر السفينة.

كان الصباح مميزاً هناك في ذلك الشاطئ، فكل شيء صامت وهادئ، وكل شيء يكتسي بلون رمادي. والبحر، على الرغم من موجاته الطويلة التي لها شكل الصليب، بدا ثابتاً ومصقول السطح كلوح رصاص ممعج تم تبريده ووضعه في قالب لصهر المعادن. بدت السماء كمعطف رجالي رمادي اللون. كانت أسراب من طيور رمادية مضطربة تجاور أسراباً من أبخرة رمادية راحت تختلط بها، فتزلق على نحو منخفض ومتقطع فوق المياه، كما تفعل أسراب السنونو فوق المروج قبل العواصف. كانت هناك ظلال تتبأ بظلال قادمة أكثر عمقاً.

دُهِش الكابتن ديLANO حين نظر إلى السفينة الغريبة عبر منظاره فلم يرها ترفع أي علم من الأعلام؛ على الرغم من أن رفع العلم لدى الدخول إلى مرفأ لا ترسو فيه سوى سفينة واحدة أخرى، ومهما كان المرفأ غير مأهول، كان العُرف المتفق عليه بين رجال البحر المسالمين المنتمين إلى جميع الدول. وإذا أخذ الكابتن ديLANO في الاعتبار عدم خضوع ذلك الموقع لأي قانون وعزله، وذلك النوع من الحكايات التي ارتبطت في تلك الأيام بتلك البحار، فإن دهشته ربما كانت قد تعمقت متحولة إلى شعور بالقلق لولا أنه كان شخصاً ذا طبيعة ودودة غير شكافة على نحو فريد؛ فهو غير قابل، باستثناء وجود حوافز استثنائية ومتكررة، للخضوع إلى الذعر الشخصي الذي يتضمن بأي حال من الأحوال أن يعزو إلى الإنسان وجود شر خبيث فيه، حتى في مثل وجود مثل تلك الحوافز. وسواء كانت مثل هذه الميزة تتضمن، نظراً إلى ما تقدر البشرية عليه، أكثر من مجرد سرعة ودقة في الإدراك الذكي، هذا مع وجود قلب

مطبوع على حب الخير، إلا أننا نترك هذا للحكماء حتى يقرروا فيه.

ولكن مهما تكن الهواجس التي انتابته لدى مشاهدته السفينة الغربية لأول وهلة، إلا أن مثل هذه الهواجس كانت ستتبدد، كما قد يخطر تقريباً في ذهن كل بحار، حين لاحظ أن السفينة وهي تدخل الميناء، كانت تقترب كثيراً من البر؛ فقد كانت ثنية أحد الأشرعة الغارقة تبرز من مقدمتها. وقد بدا أن هذا يبرهن على أنها سفينة غريبة، بالفعل، ليس في نظر ربان سفينة لصيد الفقمات فحسب، بل إنها تصل إلى هذا الميناء لأول مرة. وبالتالي، فهي لن تكون سفينة قراصنة مألوفة تنشط في المحيط. وباهتمام غير قليل، واصل الكابتن ديLANO مراقبتها - وهو إجراء لم يكن سهلاً إلى حد كبير نظراً للأبخرة التي كانت تغطي بدن السفينة، وعبرها كان ضوء فترة صلاة الصباح الصادر عن قمرتها يتغلغل على نحو غامض بما فيه الكفاية؛ شأنه شأن الشمس - التي كانت في هذا الحين قد أصبحت نصف كرة عند حافة الأفق، ومن الواضح أنها أصبحت برفقة السفينة الغربية التي تدخل المرفأ - والتي تجعدت بالغيوم المنخفضة الزاحفة نفسها، فلم تبدُ عديمة الشبه بتلك المرأة الغدّارة من مدينة ليما ذات العين الشريرة التي تحدق من خلال الفتحة الصغيرة في ثوبها الغسقي التشيلي الطراز.

ربما كانت تلك خدعة تسببها الأبخرة، ولكن مع الاستمرار في مراقبة السفينة الغربية، راحت مناوراتها تبدو أكثر شذوذاً. ثم سرعان ما بدا أنه من الصعب الإقرار بنيتها في الدخول أم لا... ما الذي كانت تريده، أو ما هو شأنها يا ترى؟ كانت الريح قد اشتد هبوبها قليلاً خلال الليل، وكانت محيرة فعلاً، مما زاد إلى حد أكبر عدم الشك في تحركاتها. وحين حدس أخيراً أنها ربما تكون سفينة في حالة خطر، أمر الكابتن ديLANO بإنزال زورق صيد الحيتان خاصته، وعلى الرغم من الاعتراض المترع بالحدز الصادر عن مساعده، فقد استعد لركوب القارب وقيادته على الأقل. في الليلة الماضية كان فريق صيد، قبل بزوغ الفجر بساعة أو ساعتين، قد عاد بعد أن حقق نجاحاً كبيراً. وهكذا، فإن الكابتن الطيب القلب الذي افترض أن السفينة الغربية قد تكون في مياه أقل عمقاً من مئة قامة، قد جهز عدة سلال من السمك كهديّة، ووضعها في قاربه، ثم انطلق به. وبما أن السفينة الغربية استمرت في الاقتراب بثنية شراعها الغارق، وبما أنه ظل يعتبرها في خطر، فقد نادى على رجاله، وسارع إلى إعلام أولئك الذين على ظهر السفينة عن وضعهم. ولكن قبل وصول القارب، كانت الريح الخفيفة تعدل اتجاهها، فجعلت السفينة تتعد قليلاً، وأبعدت الأبخرة التي كانت تغطيها.

بدت السفينة، بعد أن أصبحت أقرب للنظر، ومريئة على حافة الأمواج ذات اللون الرصاصي،

وقد كستها مزق الضباب هنا وهناك، أشبه بدير للرهبان طلي بالكلس الأبيض بعد عاصفة رعدية، وها هو يُشاهد وهو جاثم فوق جرف داكن بين جبال البيرنيه. ولكن لم يكن ذلك شهاً وهمياً خالصاً هو الذي أدى تقريباً بالكابتن ديلاانو، ولبرهة من الزمن، إلى الظن بأن ما كانت أمامه هي سفينة ملأى بالرهبان. حين حذق عبر الحاجز، فإن ما بدا له حقاً من تلك المسافة الغائمة، كان حشداً من قلسوات الرهبان؛ بينما تكشفت عن كوى جانب السفينة أشكال داكنة أخرى بدت على نحو غامض وكأنها لرهبان سود يمشون الهوينى في رواق دير من الأديرة.

لدى المزيد من الاقتراب تعدل هذا المشهد، وأضحت حقيقة السفينة جلية للعيان... سفينة تجارية إسبانية من الدرجة الأولى تحمل عبداً من الزنوج، بين حمولة أخرى أغلى ثمناً، من ميناء إحدى المستعمرات إلى ميناء آخر. سفينة كبيرة جداً ورائعة جداً، من النوع الذي كان ممكناً مصادفته أحياناً في تلك الأيام، على ذلك الخط البحري: قد تكون هذه سفن كنوز من أكابولكو تم تحويلها إلى أغراض أخرى، أو فرقاطات سابقة كانت تخص أسطول ملك الإسبان، وهي أشبه بالقصور الإيطالية التي تم الاستغناء عن سكانها من قبل أصحابها الأصليين، ولكنها ما تزال، بسكانها الحاليين الأقل منزلة، تحتفظ بدلائل على أبعثها السابقة.

حين اقترب قارب صيد الحيتان أكثر فأكثر من السفينة الغربية، فإن السبب في مظهرها الغضاري العجيب قد أصبح ظاهراً للعيان على أنه الإهمال والقذارة اللذان كانا يطغيان عليها. كانت صواريخها وحبالها وجزء كبير من متاريسها تبدو شبيهة بالصوف، وذلك بسبب عدم استخدام المكاشط والقار والفرشاة. بدت رافدة القص في السفينة بخيوط بيض ودعاماتها متصلة، وكأنها قد أطلقت من وادي العظام اليابسة لحزقيال.

في وضعها الحالي كانت الصورة العامة للسفينة توحى بأنها لم تعرف أيّ تغيير ماديّ طراً على شكلها الحربي الأصلي ونموذج Froissart. وعلى أيّ حال، لم يكن مرئياً فيها وجود أيّ مدفع.

كانت القمم كبيرة، وكانت مسيجة ذات مرة بشبكة مثمّنة الشكل، ولكنها الآن في حالة إهمال بائس. هذه القمم كانت معلقة في الأعلى كثلثة أفاص متهدمة يمكن أن يُرى في أحدها، جاثماً على أحد جبال السلم طائر أبيض من نوع خطاف البحر، وهو طائر غريب بسبب طبعه الكسول المسرّنم، ويتم اصطیاده في البحار باليد غالباً. بدت مقدمة السفينة البالية والعفنة والتي لها شكل القصر مثل برج عتيق تم الاستيلاء عليه بالقوة منذ زمن بعيد، ثم ترك

للفساد. نحو مؤخر السفينة، كانت شرفتان رباعيتان وعاليتان، غطت الدرايزونات فيهما هنا وهناك طحالب بحرية جافة وقابلة للاشتعال، تطلان من القمرة الفخمة الخالية التي كانت نوافذها المستديرة - على الرغم من الطقس اللطيف، مغلقة بإحكام ومجلفطة. كانت هاتان الشرفتان الخاليتان من الركاب معلقتين فوق البحر وكأنهما القناة العظيمة لمدينة البندقية. ولكن الأثر الرئيس المتبقي من العظمة المتلاشية كان الشكل البيضوي العريض لمؤخر السفينة الأشبه بالترس، وهو المنحوت على نحو معقد بشعارات قشتالة وليون، ومرصع بمجموعات من الأشكال الأسطورية والرمزية. في أعلى ووسط ذلك كان تمثال لإله الغابات «ساثير» مرتدياً قناعه وقد وضع قدمه فوق عنق جسد منبسط ومتلو ومقنع أيضاً.

لم يكن ممكناً التأكد من أن للسفينة في مقدمتها تمثال أم مجرد منقار بسيط، وذلك بسبب القماش الذي لُفَّ به ذلك الجزء منها، إما لحمايته خلال القيام بعملية إعادة للصقل، أو لستر اهترائه عن الأنظار. وكان قد نقش بالطلاء أو بالحوار، كما في نزوة من نزوات بحار ما، على الجانب الأمامي للتمثال، تحت القماش، جملة تقول باللاتينية «اتبع قائدك»؛ بينما ظهر بأحرف كبيرة كانت مذهبة ذات مرة، اسم السفينة وهو «سان دومينيك»، وكل حرف منه وقد تآكل بخيوط من الصدا النحاسي، بينما كانت أشرطة داكنة من أعشاب بحرية تتلوى فوق الاسم جيئةً وذهاباً كلما ارتجف بدن السفينة بحركة أشبه بحركة عربة الموتى وهي تسير في موكبها.

وحين سُحِبَ الزورق أخيراً، بواسطة خطاف، من مقدمته إلى المصطبة التي في منتصف السفينة، فإن رافدة قصه لم تعد تبعد سوى بوصات قليلة عن بدن السفينة، فراحت تصدر صريراً خشناً كما قد يحدث لو جرى ذلك فوق جرف مرجاني غارق. لقد تبين أنها حزمة ضخمة من حيوانات بحرية ملتصقة بالسفينة تحت الماء إلى جانب على نحو أشبه بكيس دهني... علامة تدل على رياح مربكة وفترات سكون طويلة تمّ التعرض لها في تلك البحار.

ما إن تسلق الزائر جانب السفينة، حتى أحيط على الفور بحشد صاحب من أشخاص بيض البشرة وآخرين من ذوي البشرة السوداء، ولكن الآخرين كانوا أكثر عدداً من الأولين إلى حدّ لم يكن ممكناً توقعه. إذن فهذه السفينة الغريبة في الميناء هي حقاً لنقل الزنوج. ولكن تدفقت بلغة واحدة، وبصوت واحد، حكاية مشتركة عن المعاناة؛ حكاية، فاقت الزنجيات، اللواتي لم يكن عددهن قليلاً، غيرهن بأن روينها بقوة مشوبة بالألم. كان داء الأسقربوط مع الحمى قد قضى على عدد كبير من الركاب، وخاصة الإسبان منهم. عندما مرّوا برأس القرن

(أدنى بقعة من أمريكا الجنوبية) فقد نجوا بالكاد من غرق السفينة؛ ثم قضوا أياماً في حالة من الغشية والريح لا تتحرك، بينما كانت مؤونتهم قليلة وماؤهم شبه معدوم، وشفاهم محمصة في تلك الدقيقة.

بينما كان الكابتن ديLANO يأخذ في الاعتبار جميع ما تقوله تلك الألسنة المتلهفة، فإن نظرتة المتلهفة الوحيدة قد لاحظت جميع الوجوه، وكل شيء آخر من حوله.

على الدوام، ولدى ركوب سفينة كبيرة وملئة بالركاب في البحر، وخاصة إن كانت سفينة أجنبية ذات طاقم غير ذي صفة، كما هو الحال في وجود رجال من لاسكارس أو مانيلا، فإن الانطباع يختلف بطريقة خاصة عن ذلك الانطباع الذي يوحى به لدى دخول منزل غريب ذي سكان غرباء في أرض غريبة. إن كلاً من المنزل والسفينة – الأول بجدرانها وستائره، والأخرى بزافراتها الأشبه بالأسوار – تستران عن الأنظار دواخلهما حتى آخر لحظة: ولكن في حال السفينة هناك هذه الإضافة: أن المشهد الحياتي الذي تحتويه، لدى كشفه المفاجئ والكامل، في تباين مع المحيط الفارغ الذي يطوقها، يتسم بأن له تأثيراً سحرياً. تبدو السفينة غير حقيقية؛ هذه الأزياء الغريبة، والإيماءات، والوجوه، ما هي إلا لوحة غامضة برزت للتو من الأعماق، وعليها أن تتلقى مباشرة ما أعطته للتو.

ربما بدا مثل هذا التأثير، كما حاولنا وصفه أعلاه، استثنائياً، وقد حدث أن تضاعف على نحو ما في ذهن الكابتن ديLANO، بعد تدقيق رصين؛ ومما فاقم في الأمر الأشكال الجليلة لأربعة زنوج مسنين شيب، تبدو رؤوسهم كقمم أشجار الصفصاف التي تساقطت أوراقها، وهم، في تباين جليل مع الجلبة التي تجري إلى الأسفل منهم، مضطجعون – على نحو مشابه لتمثال أبي الهول – واحد منهم فوق العمود الخشبي على ميمنة السفينة، وآخر فوق الميسرة، والآخران وجهاً لوجه فوق الحاجز المقابل على المصطبة الرئيسة. كان لدى كل واحد منهم قطع من حبال قديمة غير مجدولة بين يديه، وبنوع من الرضا الذاتي الرزين كانوا يحولون الحبال إلى خيوط دقيقة كانت كومة صغيرة منها إلى جانب كل واحد منهم، وهي تستخدم لسد الشقوق في السفينة. كانوا ينجزون العمل وهم ينشدون بصوت خفيض ومتواصل ورتيب؛ وكان هذا النشيد يترنن كما لو أنه صادر عن الكثير من نافخي القرب ذوي الشعر الشائب الذين يعزفون في موكب جنائري.

كان سطح مؤخر المركب يبرز عالياً وعريضاً، على ارتفاع نحو ثماني أقدام من الحشد العام. كان يجلس في صف واحد يفصل بين واحداهم والآخر مسافة منتظمة، ستة زنوج آخرين وقد



شبكوا سيقانهم. كان كل واحد منهم يحمل في يده بلطة صدئة قصيرة اليد، وكان يقوم بفركها بقطعة من الآجر وخرقة وكأنه مساعد طباخ. بين كل اثنين منهم كانت كومة صغيرة من البلطات، تنتظر حوافها الصدئة عملية مشابهة. وعلى الرغم من أن العاملين الأربعة على التقاط الخيوط كانوا يخاطبون باختصار شخصاً ما أو أشخاصاً ضمن الحشد الذي في الأسفل، إلا أن صاقلي البلطات الستة لم يكونوا يتحدثون مع أشخاص آخرين ولا يتهامون فيما بينهم، بل يجلسون مصممين على القيام بمهمتهم، إلا بين الحين والآخر، حين كان كل اثنين منهم، حسب حُب الزوج لجمع العمل مع التسلية، يتضاربان ببلطتهما الواحد مع الآخر؛ وذلك كما يفعل المرء بالصنوج، فيصدران ضجيجاً وحشياً. كان لهؤلاء الستة جميعاً، على نحو لا يشبه العموم، المظهر الفج للأفريقي الساذج.

ولكن تلك النظرة الشاملة التي تضم أولئك الأشخاص العشرة، مع عشرات آخرين أقل لفتاً للنظر، قد استقرت لبرهة واحدة فحسب عليهم، حيث إن الزائر وقد نفذ صبره من صخب الأصوات التفت باحثاً عن من قد يكون قائداً للسفينة.

ولكن كأنما كان هو راغباً في ترك الطبيعة تكشف عن وضعها بين هؤلاء الذين في عهده ويعانون، أو كأنما في يأس من إمكانية كبحتها في هذه الآونة، وقف القبطان الإسباني، وهو جنتلمان ذو مظهر متحفظ وصغير في السن في نظر أي رجل غريب. كان يرتدي ملابس فاخرة إلى حد الروعة، لكنه يحمل آثاراً واضحة لمتاعب ودواعي قلق حرمة النوم؛ فوقف جانباً بإذعان، وهو يستند إلى الصاري الرئيس، ويلقي نظرة كثيفة خالية من الروح، في برهة واحدة، على ركاب سفينته المهتاجين. ثم يلقي في برهة أخرى نظرة حزينة نحو زائره. إلى جانبه وقف زنجي صغير القامة في وجهه فظاظة، كما قد يحدث أحياناً، أشبه بما في وجه كلب الراعي. وهو يلتفت بوجهه هذا إلى القبطان الإسباني بمزيج من مشاعر الأسى والمحبة.

تقدم الأمريكي نحو الإسباني بجهد بين أعضاء الحشد، وهو يطمئنه إلى تعاطفه، ويعرض أن يقدم أي مساعدة مطلوبة يستطيع توفيرها. وكان ردّ الإسباني على ذلك بالتعبير عن شكره بوقار وبلهجة رسمية، وقد غشى سلوكه الرسمي الوطني مزاج كئيب ناجم عن اعتلال في الصحة.

ولكن الكابتن ديلاانو، ودون أن يضع المزيد من الوقت بالتحيات والتمنيات، عاد إلى المعبر الخشبي وطلب رفع سلة السمك خاصته. وبما أن الريح كانت ما تزال خفيفة، فإن بضع ساعات ستنقضي - على الأقل - قبل أن يتم جلب السفينة إلى المرسى؛ فأمر رجاله بالعودة

إلى سفينة صيد الفقمت، وأن يجلبوا من الماء ما يمكن لزورق صيد الحيتان حمله، مع أيّ خبز طريّ يمكن أن يكون في حوزة طبّاح السفينة، وكل ما تبقى من القرع على متن السفينة، مع صندوق من السكر وديزينة من زجاجات عصير التفاح خاصته.

ما إن انقضت دقائق كثيرة على دفع القارب، مع غيظ الجميع، حتى همدت الريح تماماً وعاد التيار يدفع بالسفينة إلى الخلف باتجاه البحر. ولكن نظراً لثقة الكابتن ديلاانو بأن هذا لن يدوم طويلاً، فقد حاول بالأمال النابعة من طيبة معشره، أن يرفع من معنويات الركاب الغرباء، وهو يشعر برضا كبير، وذلك لأنه كان قادراً - تجاه أناس في تلك الحالة اليائسة، على التكلم بلغتهم الأم وبسلاسة ما، وكل ذلك بفضل رحلاته البحرية العديدة على امتداد الخط البحري الإسباني الرئيس.

حين تُرك وحيداً بينهم، سرعان ما لاحظ الكابتن ديلاانو بعض الأمور التي تنحو إلى تعزيز انطباعاته الأولى، ولكن الدهشة ضاعت في غمار الشفقة، الشفقة تجاه كل من الإسبان والزواج، فقد كان جليلاً أنهم يعانون جميعاً على حدّ سواء من ندرة الماء والمؤن. وبينما كانت المعاناة المتواصلة والطويلة قد بدت وكأنها قد تتسبب في إبراز الصفات الأقل طيبة في نفوس الزوج، وفي إضعاف سلطة الإسبان عليهم في الوقت نفسه. ولكن وفق الظروف الحالية، فإن الأمور حسب وضعها الآني هي حسب ما كان متوقفاً لها. ففي الجيوش والبحرية والمدن أو حتى العائلات، وفي الطبيعة نفسها، لا شيء يتسبب في تراخي النظام الصارم سوى البؤس. ومع ذلك، فإن الكابتن ديلاانو كان على قناعة بفكرة أنه لو كان بينيتو سيرينو رجلاً ذا طاقة حيوية أعظم، لما كانت الفوضى قد وصلت إلى المأزق الحالي. ولكن الضعف، سواء كان بنيوياً أم ناجماً عن المشقّات، الجسدية منها والعقلية، للكبّطان الإسباني، كان جليلاً جداً بحيث لا يمكن تجاهله. كان ضحية لاكتئاب راسخ، ولأنه ربما تعرض طويلاً لهزء الأمل منه، فهو ما عاد لينغمس فيه الآن، حتى ولو أن الأمل توقف عن الهزء به؛ وها هي احتمالات الفرج لهذا النهار أو حتى المساء على الأكثر، بأن يستطيع الرسوّ بسفينته مع الكثير من الماء لركابه ووجود قبطان شقيق يشاوره ويصادقه، ومع ذلك فلم يبدُ عليه أيّ علامة من علامات الانفراج. بدا عقله وكأنه متوتر تماماً، إن لم يكن قد تأثر بما جرى على نحو أكثر خطورة. ها هو مغلق عليه ضمن جدران من خشب السنديان، وقد تكبّل بنطاق كئيب واحد من القيادة كانت لا شرطيته تتخمه، وكأنه راهب مصاب بوسواس مرضي، فتراه يتحرك ببطء في أرجاء المكان، ويتوقف أحياناً على نحو فجائي، ويجفل أو يحدّق، وهو يعضّ على شفّته، أو على أظافر أصابعه. قد يتورد وجهه أو يشحب، وترتعش لحيته؛ هذا بالإضافة إلى أعراض أخرى

تدل على ذهن غائب أو كئيب. هذه الروح المعتلة كانت مقيمة، كما سبق وألمحنا، ضمن جسد معتلّ بالدرجة نفسها. كان رجلاً طويلاً القامة إلى حدّ ما، ولكن يبدو وكأنه لم يسبق له أن كان قويّ البنية، والآن مع هذه المعاناة العصبية فقد أضحى مجرد هيكل عظمي. بدا مؤكداً أنه يعاني من علة في رثته على نحو مؤكد. لقد كان صوته أشبه بصوت شخص فقد نصف رثته... كان مكبوحاً مع بحّة وعبرة عن همس أجش. لا عجب إذن، كونه في مثل هذه الحالة من الترنّح، أن يرافقه خادمه الشخصي على هذا النحو المترع بالإشفاق على صحته. كان الزنجي يعير سيده ذراعه في بعض الأحيان، أو يخرج له منديله من جيبه؛ وهو يؤدي هذه الطقوس وما شابهها بتلك الحماسة المترعة بالحنان التي تتحول إلى شيء ما بنويّ أو إلى أفعال أخويّة بحدّ ذاتها، إنما يتبقى فيها سلوك خادم لسيدة. وهذا قد أكسب الزنجي عامة السمعة التي تفيد بأنه أفضل من يعمل في مهنة الخادم الشخصي في هذا العالم؛ وهو أيضاً خادم لا يحتاج سيده إلى أن يعامله بفوقية تتسم بالقسوة، بل قد يعامله بثقة مألوفة، كرفيق مخلص أكثر منه كخادم.

وإذ لاحظ الكابتن ديLANO روح العصيان الصاحب السائدة بين الزوج عموماً، وكذلك ما بدا على أنه انعدام الكفاءة النكد السائد بين الرجال البيض البشرية، فقد راح يرى السلوك الطيب المتواصل لـ «بابو» بعين الرضا العطوف.

ولكن السلوك الطيب لبابو، الذي لا يزيد عن كونه سوء تصرف من الآخرين، بدا وكأنه يوقظ دون بينيتو نصف المعتوه من ضناه الغامض. لم يكن هذا بالضبط هو الانطباع الذي تركه الإسباني في ذهن الزائر. لقد لوحظ القلق الشخصي للقبطان الإسباني - في الوقت الحاضر - فاعتبر على أنه مجرد مظهر جليّ من مظاهر الحالة العامة البائسة للسفينة. ومع ذلك، لم يكن قلق الكابتن ديLANO قليلاً تجاه ما رآه في الوقت الحالي على أنه اللامبالاة غير الودّية التي أبدتها دون بينيتو تجاهه شخصياً. كان سلوك الإسباني يحمل أيضاً نوعاً من الازدراء النكد والكئيب لم يبذل أيّ جهد ليخفيه. ولكن الأمريكي علّل ذلك وبنوع من التسامح على أنه يعود إلى التأثيرات المنهكة للمرض، وبما أنه كان قد سبق له ولاحظ في أمثلة سابقة أن هناك طبائع خاصة يبدو معها أن المعاناة الجسدية المطوّلة تلغي كل طبع من طبائع اللطف في التعامل. لكننا وقد اضطررنا إلى المعاناة هم أنفسهم، فقد أضحوا يعتبرون أنه من العدل أن كل شخص يقترب منهم سيكون عليه - على نحو غير مباشر - بتجاهل أو بتحدّ ما، وعلى نحو غير مباشر، أن يشاركهم مصيرهم.

ولكن سرعان ما فكر الكابتن ديلاانو، وهو الذي كان متساهلاً في البداية، أنه في حكمه على القبطان الإسباني فقد لا يكون قد مارس الترفق في الحكم بالحد الكافي على أي حال. في الأساس، كان تحفظ دون بينيتو هو الذي أثار استياءه؛ ولكن هذا التحفظ نفسه كان موجهاً إلى الجميع باستثناء خادمه الشخصي. وحتى التقارير الرسمية التي كانت تُقدم له - حسب التقاليد البحرية - في أوقات محددة، من قبل رؤوس صغير، سواء أكان أبيض البشرة أم خلاصياً أم زنجياً، فلم يكن يتحلّى بالصبر الكافي للإصغاء إليها، وذلك دون أن يعبر عن مقت مشوب بالازدراء. كان أسلوبه في مثل تلك المناسبات، لا يختلف في مرتبه عما هو مفترض أن يكون لابن بلده الإمبراطوري، شارل الخامس<sup>1</sup>، قبل التنازل الرهباني لذلك الملك عن العرش.

هذا الكره النكد لوضعه كان جلياً في كل وظيفة تتعلق به. كان متكبراً بقدر ما هو متقلب المزاج، لذا لم يكن يتنازل أمام أي أمر شخصي. ومهما كانت الأوامر الخاصة ضرورية، فإن إيصالها كان يُحال إلى خادمه الشخصي الذي كان ينقلها إلى غايتها النهائية عبر سعاة هم فتية نشيطون من الإسبان أو من العبيد، كالوصفاء - أو كالسمك الذي يعيش متطفلاً على الأسماك الأكبر - ممن هم على مسمع منه ويحومون على الدوام من حول دون بينيتو. لذلك، وبعد أن شاهد هذا السلوك المتحفظ غير السليم، اللامبالي والأخرس، ما كان ممكناً لأي بحار غرّ أن يحلم في أن يتحلّى باستبداد لا مجال فيه للمناشدة الأرضية خلال الإبحار.

لذلك بدا الإسباني، من خلال تحفظه هذا، ضحية لإرادية لاضطراب عقلي. ولكن، في الواقع، ربما كان تحفظه، إلى درجة ما، أمراً مقصوداً. لو كان الأمر كذلك، فهاهنا تتضح تلك الذروة الفاسدة لتلك السياسة الجليدية على الرغم من كونها ناجمة عن ضمير حي؛ وهي سياسة يتبناها جميع قادة السفن الكبيرة، ولكن باستثناء حالات الطوارئ الخطيرة، فإنها تلغي مظاهر السيطرة والتحكم مع كل أثر من آثار الالتئام؛ فتحوّل الرجل إلى كتلة صماء أو بالأحرى إلى مدفع محشو بقذيفة ليس لديه ما يقوله إلا إن كانت هناك دعوة للانتقام. وإذا راح ينظر إلى الأمر ضمن هذا المعيار، فقد بدا أن ذلك مجرد أمانة طبيعية للعادة الحمقاء الناجمة عن ممارسة طويلة الأمد لكبح الذات القاسية، حتى إن هذا الإسباني، بغض النظر عن الوضع الحالي لسفينته، مضطر إلى الاستمرار في ممارسة سلوكه مهما كان غير ضار، أو ربما قد يكون ملائماً في سفينة كاملة الجاهزية كما كان من شأن «سان دومينيك» أن تكون عليه عند بداية إبحارها، إلا أنه ليس حكيماً الآن على الإطلاق. ولكن ربما ظنّ الإسباني أنه مع القباطنة كما مع الآلهة: التحفظ، في كل الأحوال والظروف يتوجب أن يكون أسلوب

استقبالهم. ولكن ربما كان مظهر هذه السيادة الهاجعة مجرد ستار تتم محاولته لإخفاء بلاهة خجلة - ليست سياسة عميقة، بل حيلة سطحية. ولكن فليكن هذا ما شأنه أن يكون، فسواء كان سلوك دون بينيتو متعمداً أم لا، إلا أن الكابتن ديLANO كان كلماً أمعن في ملاحظة هذا التحفظ السائد، كان يشعر بالقلق من أيّ مظهر خاص من مظاهر ذلك التحفظ الموجه إلى شخصه.

ولم تكن أفكاره مشغولة بالقبطان وحده. فهو المعتاد على النظام الهادئ لطاقم سفينة صيد الفقمة الرخي البال، قد وجد الفوضى الصاخبة للحشد المعذب على متن «سان دومينيك» في حالة تحد لبصره مرة إثر أخرى. لقد لاحظ بعض الانتهاكات البارزة، ليس للنظام فحسب، بل للاحتشام واللباقة. ولم يستطع الكابتن ديLANO سوى أن يعزو ذلك أساساً إلى عدم وجود ضباط ثانويين من طاقم السفينة، ممن توكل إليهم واجبات أسمى، كما ويعهد إليهم أيضاً بما يمكن أن يصنف على أنه مخفر الشرطة في سفينة كثيرة الركاب. صحيح أن ملتقطي نتف الحبال بدوا أحياناً وكأنهم يلعبون مع أبناء بلدهم - أي الزوج - دور رجال الشرطة الناصحين؛ وعلى الرغم من أنهم كانوا ينجحون أحياناً في تهدئة بعض النزاعات الصغيرة بين رجل وآخر، إلا أنهم ما كانوا قادرين على فعل الكثير أو غير قادرين على فعل أي شيء فيما يخص ترسيخ الهدوء العام. كانت «سان دومينيك» تعمل كسفينة تبحر عبر الأطلسي لنقل المهاجرين، وكان من بين حمولتها الكبيرة من البضاعة الحية بعض الأفراد، لا يتسبون - دون شك - في أيّ إزعاج شأنهم في ذلك شأن الصناديق والرزم؛ ولكن احتجاجات هؤلاء على رفاقهم الأكثر فظاظاً، لم تكن مفيدة جداً كما يمكنها أن تكون ذراع مساعد القبطان غير الودية. ما كانت «سان دومينيك» في حاجة إليه هو ما يكون عادة لسفينة نقل المهاجرين، أي ضباط كبار حازمون. ولكن فوق ظهر تلك السفينة ما كان ممكناً مشاهدة حتى ضابط برتبة مساعد رابع للقبطان.

لقد تيقظ فضول الزائر حين عرف بتفاصيل تلك الحوادث المؤسفة التي تسببت بمثل هذا الغياب ونتائجه؛ وعلى الرغم من استنتاجه لبعض أمور الرحلة من النحيب الذي استقبل به، إلا أنه لم يستطع التعرف على أيّ تفاصيل. كان أفضل تقرير هو ما يمكن أن يقدمه القبطان. ولكن في البداية كره الزائر أن يطلب منه ذلك، فلم يكن راغباً في أن يثير صدىً غير ودي. ولكنه استجمع شجاعته فبادر دون بينيتو بالكلام، مجدداً تعبيره عن اهتمامه النابع من حبّ الخير، ومضيفاً أنه لو عرف (أي الكابتن ديLANO) بتفاصيل محنة السفينة، لتمكن على نحو أفضل في النتيجة من تقديم العون لهم. هل يمكن لدون بينيتو أن يتفضل عليه فيروي له

## الحكاية كلها؟

تلعثم دون بينيتو، ثم وكأنه شخص مسرّوم تمّ اعتراضه فجأةً، راح يحرق بنظرات فارغة، وانتهى إلى أن وجهه بصره إلى ظهر السفينة. وقد استمر على هذه الحال لفترة طويلة، حتى إن الكابتن ديلاونو، وقد ارتبك بالدرجة نفسها تقريباً، تصرف بفضافة غير طوعية، والتفت فجأةً بعيداً عنه، ثم سار إلى الأمام ليبادر أحد البحارة الإسبان بالكلام، طلباً للمعلومات المرغوب فيها. ولكن ما إن سار خمس خطوات حتى دعاه دون بينيتو بنوع من اللهفة إلى العودة، وهو يعبر عن أسفه لغفلة ذهنه المؤقتة، وعن استعداده لإرضاء رغبات الزائر.

وبينما كان يتمّ سرد الحكاية، وقف القبطانان على الجزء الخلفي من المتن الرئيس للسفينة، وهي بقعة ذات امتياز، حيث لم يكن إلى القرب منهما سوى الخادم.

بدأ الإسباني الكلام بهمس أجشّ: «منذ مئة وتسعين يوماً أبحرت هذه السفينة المزودة بالعدد الجيد من الضباط والبحارة وفيها عدد من الركاب في قمراتها - ومجموعهم خمسون إسبانياً تقريباً - من بوينس آيرس متوجهة إلى ليما. وعليها حمولة من الخردوات والشاي القادم من باراغواي وما شابه... و»، هنا أشار إلى الأمام «تلك الرزمة من الزنوج، وهم الآن ليسوا أكثر من مئة وخمسين فرداً، كما ترى، إلا أنهم كانوا يعدّون آنذاك أكثر من ثلاث مئة نفس. عندما مررنا بـ (رأس القرن) هبّت علينا عواصف خطيرة. وخلال لحظة واحدة، في الليل، فقدنا ثلاثة من أفضل ضباطي مع خمسة عشر بحاراً ومعهم عارضة الساري الكبرى في الشراع الأكبر للسفينة؛ وراح الصاري يتقصّف تحتهم في شبكات الحبال، وهم ينشدون، مستخدمين الروافع، أن يخلصوا الشراع من الجليد. وحتى نخفف عن بدن السفينة تمّ رمي الأكياس الأثقل من الماتا في البحر، مع معظم أنابيب المياه وقد ثبتت فوق ظهر السفينة في ذلك الحين. وهذه الضرورة الأخيرة مع الإعاقات المطوّلة فيما بعد هي التي أدّت في النهاية إلى حدوث الأسباب الرئيسة للمعاناة. حين...».

هنا فاجأته نوبة من سعاله المسبب للإغماء، وكانت دون شك نتيجة للكرب الذي حلّ بعقله. أزره خادمه، وأخرج شراباً من جيبه ووضع على شفّته. انتعش قليلاً. ولكن الزنجي غير الراغب في أن يدعه دون مؤازرة وهو الذي لم يستفق بعد من إغمائه، طوق بإحدى ذراعيه سيده، وراح في الوقت نفسه يبقي عينيه مثبتتين على وجهه، وكأنما ليلاحظ أول علامة على استعادته لصحته على نحو كامل، أو ربما لانتكاسة ما، كما يمكن أن يحدث.

استأنف الإسباني الكلام، ولكن بلهجة متقطعة وغامضة كمن هو في حلم:  
«... أوه، يا إلهي! كنت سأفضل بالأحرى أن أرحب بسرور بأكثر العواصف رهبة على أن أمرّ  
بتجربة ما جرى لي؛ ولكن...».

عاد يسعل مجدداً بعنف أكبر؛ وبعد أن هدأ هذا السعال، وبشفتين محمرّتين وعينين  
مغمضتين فقد انهار بثقل على خادمه.

قال الخادم بلهجة حزينة: «إن ذهنه ليهيم. كان يفكر في الوباء الذي تبع العواصف. سيدي  
المسكين، المسكين!» قال هذا وهو يعصر إحدى يديه ويمسح بالأخرى فم القبطان. «ولكن  
كن صبوراً يا سيدي». قال هذا وهو يلتفت إلى الكابتن ديلانو. «هذه النوبات لا تدوم  
طويلاً، سرعان ما سوف يستردّ سيدي وعيه».

استرد دون بينيتو وعيه، فاستأنف الكلام؛ ولكن بما أن هذا الجزء من الحكاية تمّت روايته  
على نحو متقطع جداً، فإننا سنورد أدناه موضوع تلك الحكاية:

بدا أنه بعد أن بقيت العواصف تتقاذف السفينة عبر «رأس القرن»، انتشر داء الإسقربوط  
فقضى على أعداد من البيض والزنج. وحين استطاعوا أخيراً الوصول إلى المحيط الهادي،  
كانت صواريهم وأشرعتهم قد تضررت إلى حدّ كبير، وكان يتمّ التعامل بها على نحو غير  
ملائم من قبل البحارة المتبقين على قيد الحياة، وكان معظمهم قد أصبح عاجزاً، بحيث تعذر  
توجيه السفينة شمالاً حسب الريح التي كانت قوية، فكان أن اتجهت السفينة ولعدة أيام وليالٍ  
متتالية باتجاه الشمال الغربي، وهناك تخلّى عنها النسيم فجأة في مياه مجهولة، وسكون للريح  
شديد الحرارة والرطوبة. والآن فإن عدم توفر عبوات الماء برهن على أنه أكثر فتكاً بالأرواح  
بقدر ما كان وجودها من قبل يهددها. وبسبب النقص في الماء فقد انتشرت الحمى بعد  
الإسقربوط؛ ومع وجود الحرارة الشديدة والسكون الطويل الأمد، فإن أسراً بحالها من الأفارقة  
قد تمّ القضاء عليها بسرعة، وكأنما اكتسحتهم الأمواج. وقد تمّ القضاء أيضاً على عدد أكبر  
من الإسبان نسبياً، بمن فيهم - ويا للعبة القدر - كل ضابط باق على قيد الحياة فوق متن  
السفينة. ونتيجة لذلك، تبع سكون الرياح هبات غربية نشطة، وها هي الأشعة التي تمزقت من  
قبل قد تمّ إنزالها ببساطة، دون أن يتمّ لفّها، فقد تحولت إلى ما يشبه الخرق الرثة التي يلبسها  
الشحاذون. وقد قرر القبطان التوجه إلى «بالديفيا» من أجل إيجاد بدائل عن بحارته الراحلين  
والحصول على الماء وأشرعة جديدة، وذلك في أول فرصة ممكنة، وهو أقصى ميناء متحضر

في جنوب تشيلي وأمريكا الجنوبية. ولكن مع الاقتراب من الميناء منعه الطقس الرديء من الاقتراب حتى إلى مسافة يستطيع منها مشاهدة الميناء. ومنذ ذلك الحين، والسفينة سان دومينيك، دون طاقم تقريباً، ودون أشرعة وماء، وهي ترمي بموتاهها الإضافيين في البحر بين الحين والآخر، تحارب الرياح المعاكسة، ويتم إغواؤها من قبل التيارات، أو تنمو فوقها الأعشاب في فترات سكون الريح. وشأنها شأن شخص ضائع في الغابات، فقد قطعت المسار نفسه مرتين أو أكثر.

ثم استأنف دون بينيتو الكلام بصوته الأَجَشَّ، وهو يلتفت بألم من خلال نصف العناق الذي كان خادمه يحيطه به، فقال: «وخلال كل هذه المصائب، عليّ أن أشكر الزوج الذين تراهم، وهم ولو بدوا جموحين في عينيك غير الخبيرتين بمثل هذه الأمور، إلا أنهم تصرفوا بلطف ما كان لمالكهم أن يحسب أنه يمكن أن يصدر عنهم في مثل هذه الظروف».

وهنا أغمي عليه مجدداً. ومرة أخرى ها هو ذهنه يحوم بعيداً؛ ولكنه عاد فاستجمع نفسه واستأنف الكلام بلهجة يشوبها الغموض.

«أجل، كان مالكهم على حقّ تماماً حين طمأنني إلى أنه لا حاجة إلى تقييد زوجه بالأغلال؛ لذلك، وكما هو المعتاد في نقل مثل هؤلاء، فقد كانوا على الدوام فوق ظهر السفينة - ولم يحشروا في الأسفل، كما هي الحال فيما يخصّ الرجال الغينيين - كما كانوا منذ البداية أحراراً في التجول فوق متن السفينة كما يشاؤون».

عاد الإغماء مجدداً - كما حوّم ذهنه بعيداً - ثم صحا من جديد، فاستأنف الكلام:

«ولكن بابو هذا هو الذي أدين له - وحقّ الرب - ليس ببقائي على قيد الحياة، بل لأنه كان يهدئ من روع أخوته الأكثر جهلاً كلما كانوا يبدوون بالتذمر بين الحين والآخر».

تنهد الزنجي وهو يحني وجهه وقال: «آه يا سيدي. لا تذكرني. بابو لا شيء. وما فعله بابو هو واجبه».

صاح الكابتن ديلانو: «يا له من شخص مخلص! يا دون بينيتو، أحسبك على هذا الصديق؛ فأنا لا أستطيع أن أسميه عبداً».

مع وقوف السيد والرجل أمامه، والزنجي يسند الرجل الأبيض البشرية، لم يستطع الكابتن ديلانو سوى التفكير في جمال هذه العلاقة التي يمكنها أن تقدم مثل هذا المشهد من



الإخلاص من جهة والثقة من جهة أخرى. وقد كان المشهد متعزلاً بالتباين في اللباس، مما كان يشير إلى موقع كل واحد منهما. كان الإسباني يرتدي سترة فضفاضة من طراز «تشيلي» من المخمل الأسود وبنطالاً قصيراً وجوربين بلون أبيض، مع أبازيم فضية عند الركبة وأخمص القدم؛ إضافة إلى قبعة مكسيكية ذات قمة عالية بلون أخضر صاف، وسيف نحيل مطعم بالفضة معلق بعقدة في حزامه... وهذا الأخير هو نوع من الإضافة الثابتة، مخصص للاستعمال أكثر من كونه مجرد زينة، وما يزال حتى هذه الساعة جزءاً من زي أي جنّلمان قادم من أمريكا الجنوبية. وباستثناء تلك التلويحات العصبية التي كانت تسبب اضطراباً في اللباس، فقد كانت هناك دقة معينة في لباسه يتناقض إلى حدٍ مثير للفضول مع الفوضى القبيحة السائدة من حوله؛ خاصة في ذلك الغيتو القذر في مقدمة السفينة عند الصاري الرئيس والذي يشغله بأكمله أفراد من الزوج.

لم يكن الخادم يرتدي أيّ شيء عدا بنطال فضفاض، وهو بسبب خشونته ورقعه قد صُنِعَ كما هو جليّ من قماش شراع عتيق. كان البنطال نظيفاً، ومثبّطاً عند الخصر بقطعة حبل غير مجدول مما جعله يبدو، مع هيئته الهادئة الحزينة في بعض الأوقات، كراهب متسوّل من رهبان القديس فرنسيس.

ومهما كانت زينة دون بينيتو غير ملائمة للزمان والمكان – على الأقل في نظر الأمريكي ذي الذهن المتبدّل – ومهما كان بقاؤه على قيد الحياة غريباً في وسط كل مصائبه، إلا أن هذه الزينة لم تكن – من حيث الموضوعة على الأقل – قد تجاوزت ما هو مألوف لدى الذكور الأمريكيين الجنوبيين من طبقته. وعلى الرغم من إقراره في هذه الرحلة التي أبحرت من بوينس آيرس، بأنه من مواطني وسكان تشيلي التي لم يتبنّ سكانها عموماً ارتداء المعطف البسيط والبنطال العادي؛ إلا أنه التزم بتعديل ملائم للزيّ المحليّ لذلك البلد، وهو زيّ رائع شأن أيّ زيّ آخر في هذا العالم. ومع ذلك، وبالتناسب مع الحكاية العادية لهذه الرحلة البحرية، ووجهه الشاحب، بدا وكأن هناك شيئاً ما غير مناسب في ملابس هذا الإسباني، وكأنما هي توحى بصورة رجل مريض وعاجز من رجال الحاشية يترنح متسكعاً في شوارع لندن خلال انتشار وباء الطاعون.

كان ذلك الجزء من الحكاية الذي ربما أثار معظم الاهتمام، كما بعض الاندهاش، إذا ما أخذنا خطوط العرض ذات الصلة في الاعتبار، هو الفترات الطويلة من سكون الريح التي تمّ ذكرها، وعلى الأخص انجراف السفينة طوال ذلك الزمن الطويل دون هدف. ودون أن يعبر

عن رأيه بالطبع، فإن الأمريكي لم يستطع سوى أن يعزو جزءاً على الأقل من تلك الإعاقات إلى قلة البراعة في فن الملاحة وخطأ في الإبحار. وبينما راح ينظر إلى يديّ دون بينيتو الصغيرتين الصفراوين، فقد استنتج بيسر أن هذا القبطان الشاب لم يكن يقود السفينة في ثقب القلس، بل من نافذة القمرة. وإن كان الأمر كذلك، فلماذا عليه أن يتعجب من انعدام الأهلية وقد اجتمع في آنٍ واحد الشباب والمرضى ونبالة المحتد؟

عبر الكابتن ديLANO مجدداً عن تعاطفه بعد سماع الحكاية، بأن أغرق النقد في غمار الشفقة؛ ولم ينخرط، كما جرى في البداية، في تزويد دون بينيتو وركابه بالاحتياجات الجسدية الفورية فحسب، بل وعد أيضاً بمساعدته في تدبير كمية كبيرة من الماء، وبيع بعض الأشرطة والصوراري. وعلى الرغم من أن ذلك لن يكون محرراً له إلى حدٍ كبير فحسب، إلا أنه سيجعل ثلاثة من أفضل ملاحيه ليكونوا ضباطاً مؤقتين على ظهر السفينة. وهكذا ودون تأخير يمكن للسفينة أن تمضي باتجاه ميناء «كونشيسيون» وهناك سيتم إعادة ترميمها حتى تتمكن من الوصول إلى ليما، وهي التي كانت وجهتها الأصلية.

لم يكن ذلك الكرم عديم الأثر، حتى بالنسبة إلى ذلك الشخص المريض. فقد أشرق وجهه، وتبادل النظر مع زائرته بتوق وقلق؛ وقد غلبه الامتنان.

«هذه الإثارة تضرّ بسيدي»، هكذا همس الخادم وهو يمسك بذراع سيده وينحو به جانباً بلطف وهو يواسيه بكلمات رقيقة.

حين عاد دون بينيتو، تألم الأمريكي حين لاحظ أن استبشاره، شأن التورد المفاجئ لوجنتيه، لم يكن سوى دليل على الحمى، كما كان سريع الزوال.

وسرعان ما دعا المضيف ضيفه، وعليه سيماء تخلو من الفرح، وعيناه تنظران إلى ذلك السطح المرتفع عند مؤخر السفينة، ليرافقه إلى ذلك المكان، وذلك لاستنشاق أيّ نفحة ريح قد تهبّ هناك.

حدّق الكابتن ديLANO الآن، كما جرى أيضاً خلال سرد الحكاية، مرة أو مرتين إلى أولئك الذين كانوا يشحذون البلطات القصيرة وكأنهم يضربون الصنوج، متسائلاً عن السبب في السماح بمثل هذه المقاطعة لكلام القبطان، خاصة في ذلك الجزء من السفينة، وتحت مسمع شخص مريض؛ وعلاوة على ذلك بما أن البلطات لم تكن ذات منظر جذاب، ولا حتى من كان يمسك بها. لذلك، قبل الكابتن ديLANO دعوة مضيفه، حتى نقول الحقيقة، ليس دون تردد

مشوب بالتخلف، أو حتى الإجفال، وبكياسة واضحة. وما حرّضه على ذلك إلى حدّ أبعد أن دون بينيتو، بنزوة غير ملائمة من الحرص على الشكليات، بدت مثيرة للشفقة نظراً لشكله الشبحي، راح يصرّ بوقار، وبانحناءات من الطراز القشتالي، على أن يتقدمه ضيفه خلال صعود السلم المؤدي إلى ذلك السطح حيث كان يجلس على كل جانب من جانبي آخر درجة منه اثنان من مؤيدي شعار النبالة وحراسها من بين أفراد ذلك الصف الطويل المنذر بالشؤم من الأشخاص. وبحذر كافٍ مرّ الكابتن ديLANO من بينهما، وفي اللحظة التي تركهما فيها خلفه، وكأنه شخص مدان يعبر بين صفين من الجنود المسلحين بالهراوات، فقد شعر برعشة خوف في ربلتي ساقيه.

ولكنه حين واجه الصف الطويل كلّه، وأفراده الأشبه بعازفي الأرغن ممن يقفون في الشوارع، وهم ما يزالون مصرّين على الاستمرار في عملهم على نحو غبيّ، دون أن ينتبهوا إلى أيّ شيء آخر، فلم يستطع مغالبة الابتسام من الرعب المشوب بالقلق الذي اعتراه قبل قليل.

والآن، وهو واقف مع مضيفه، ويرنو إلى ظهر السفينة إلى الأسفل، فقد دهش من واحد من هذه التصرفات التي تدل على العصيان والتي أشير إليها سابقاً. كان ثلاثة فتيان من الزوج، مع اثنين من الفتيان الإسبان، جالسين معاً على البويات، وهم يكشطون طبقاً بسيطاً من الخشب، كان قد سبق وطُبخ فيه مقدار قليل من الطعام. وفجأة، قام أحد الفتية من الزوج، وقد أثير غضبه بسبب كلمة صدرت عن أحد رفيقيه الإسبانيين، بالإمساك بسكين، وعلى الرغم من أنه طُلب منه أن يتدرّع بالصبر من قبل أحد لاقطي نتف الحبال، إلا أنه ضرب الفتى في رأسه فتسبب له بجرح راح الدم ينزف منه.

سأل الكابتن ديLANO مندهلاً عما كان معنى ذلك. وكان ردّ دون بينيتو بالهمهمة بفتور قائلاً إن ذلك مجرد مزاح يجري بين الفتيان.

أجاب الكابتن ديLANO: «هذا مزاح خطير جداً بالفعل. لو حدث شيء كهذا على متن سفينة (متعة العازب)، فإن العقوبة الفورية ستلي ذلك».

عندما سمع الإسباني هذه الكلمات، التفت إلى الأمريكي وهو يوجّه إليه واحدة من نظراته المفاجئة والمحدقة ونصف المجنونة. ثم أجاب وهو يعود إلى الانغماس في واحدة من حالات الخدر خاصته: «لا شك في ذلك، لا شك في ذلك يا سينيور».

فكّر الكابتن ديLANO: هذا الرجل البائس واحد من أولئك القباطنة الوهميين ممن عرفتهم وهم

يتبعون سياسة يتغاضون بموجبها عمّا لا يستطيعون السيطرة عليه بسلطتهم؟ ليس هناك في نظري مشهد أكثر إثارة للأسى من مشهد قائد لا يتحلّى بأيّ من ميزات القيادة عدا الاسم.

قال الآن وهو ينظر إلى لاقط نتف الحبال الذي حاول أن يتدخل بين الفتيين: «عليّ أن أظنّ أنك تجد أنه أمر صائب إبقاء كل أولئك الزوج مشغولين، وخاصة أولئك الأصغر سنّاً بينهم، مهما كانت المهام التي يؤدونها عديمة الجدوى، ومهما يحدث للسفينة. عجباً، حتى مع جماعتي القليلة العدد فقد أجد مثل هذا السلوك أمراً لا غنى عنه. وقد أبقيت ذات مرة طاقماً على سطح مؤخر سفينتي وهم ينسلون بسطاً لقمرتي، وذلك حين كنت قد فقدت الأمل من سفينتي - أبسطتها ورجالها وكل ما فيها - ولمدة ثلاثة أيام، بسبب عنف العاصفة، والتي لم نكن نستطيع خلالها أن نفعل أيّ شيء سوى أن نستسلم لها».

همهم دون بينيتو: «لا شك في ذلك. لا شك في ذلك؟».

استأنف الكابتن ديLANO كلامه وهو ينظر مجدداً إلى لاقطي نتف الحبال ثم إلى من كانوا يشحذون البلطات: «ولكنني أراك تبقي بعض جماعتك مشغولين».

«أجل»، هكذا جاء مرة أخرى الردّ الفارغ.

استأنف الكابتن ديLANO وهو يشير إلى لاقطي نتف الحبال: «أولئك الرجال المسنين هناك الذين يهزون قبضاتهم من منابرهم يبدوون وكأنهم يلعبون دور المهيمنين على البقية، على الرغم من أن نصائحهم لا يتمّ الأخذ بها أحياناً. هل هذا أمر طوعي من جانبهم يا دون بينيتو، أو هل عينتهم كرهاة لقطيعك من الخراف السود؟».

«المناصب التي يحتلونها هي من تعييني أنا»، هكذا ردّ الإسباني بلهجة لاذعة وكأنه مستاء من فكرة ساخرة تمّ افتراضها.

استأنف الكابتن ديLANO كلامه وهو ينظر بقلق إلى حدّ ما إلى الفولاذ الذي يتمّ التلويح به من قبل أولئك الذين كانوا يشحذون البلطات، حيث كان بعضها قد بدأ يلتمع: «وماذا عن أولئك الآخرين، أولئك المشعوذين من الأشانتي<sup>2</sup> هنا. يبدو لي ما هم بصدده وكأنه أمر مثير للفضول، يا دون بينيتو».

أجاب الإسباني قائلاً: «خلال العواصف التي قابلناها، فإن ما كان ضمن حمولتنا عموماً ولم تقذفه العواصف من على متن السفينة، أصيب بأضرار كبيرة بسبب الماء الشديد الملوحة.

ومنذ أن حلّ علينا هذا الطقس الهادئ، فقد أمرت بأن يتمّ شحذ الكثير من السكاكين والبلطات تحضيراً للإصلاح والتنظيف».

«يا لها من فكرة حكيمة يا دون بينيتو. أنت مالك لجزء من السفينة والحمولة على ما أفترض، ولكنك لا تملك أيّاً من العبيد على الأرجح، أليس كذلك؟».

ردّ عليه دون بينيتو بصبر نافذ: «أنا أملك كل شيء تراه، باستثناء هذه المجموعة الرئيسة من الزوج التي كان يملكها صديقي المرحوم ألكسندرو أراندا».

مع تلفظه بهذا الاسم، بدا عليه أسي ساحق للقلب؛ ارتعشت ركبتاه، وقام خادمه بإسناده.

وإذ ظنّ الكابتن ديLANO أنه قد حزر السبب في هذا الانفعال غير العادي، فقال حتى يتأكد من ظنّه: «وهل لي أن أسأل، يا دون بينيتو، ما إذا كان ذلك الصديق الذي يؤلمك فقده - وبما أنك ذكرت قبل قليل ركاب القمرات - كان في بداية الرحلة يرافق زوجه؟».

«أجل».

«ولكنه مات بالحمى؟».

«مات بالحمى. أوه، لو أنني أستطيع فحسب...».

ومن جديد، ارتعش الإسباني وصمت.

قال الكابتن ديLANO بصوت خفيض: «اعذرني، ولكنني أظن، وهذا نابع من خبرتي في التعاطف، يا دون بينيتو، أنني أعرف ما يسبب لك الجزء الأكثر إيلاماً في أساك. لقد عرفت سوء الحظ ذات مرة حين فقدت صديقاً ونحن في البحر، وكان ذاك أخاً لي. ثم خسرت حمولتي الرئيسة. وبما أنني كنت واثقاً من صلاح روحه، فقد كنت قادراً على تحمل رحيله كرجل؛ ولكن أن تُرمى تلك العين الصادقة، وتلك اليد الكريمة - وكلتاها كمّ وكمّ التقتا بعيني ويدي - وذلك القلب الحنون، أن يُرمى كل ذلك إلى سمك القرش كما يُرمى الفتات إلى الكلاب! عندها بالضبط آليتُ على نفسي ألا يرافقني في رحلاتي رجل أحبه، ما لم أكن قد قمتُ بكل الإجراءات - دون معرفته - لتحنيط جثته في حال وفاته حتى ندفنه لاحقاً حين نصل إلى البر. هل جثمان صديقك ما يزال على متن هذه السفينة يا دون بينيتو، ليؤثر فيك إلى هذا الحدّ مجرد ذكر اسمه؟».

كرّر الإسباني قائلاً: «على متن هذه السفينة؟» ثم وبإيماءات مروعة، كأنما كان يطرد بها

شبحاً ما، سقط فاقد الوعي بين ذراعي خادمه الذي راح يناشد الكابتن ديلانو بصمت، ويرجوه ألا يتطرق مجدداً إلى موضوع يسبب الكثير من الأسى لسيدة.

هذا الشخص المسكين الآن - هكذا فكر الأمريكي الذي اعتراه الألم - ضحية للخرافة التي تربط ما بين الجنّ وجثة الإنسان التي لا يتمّ دفنها، كما ترتبط الأشباح بالمنازل المهجورة. لكم نختلف نحن البشر واحداً عن الآخر! ما الذي يمثل لي في حالة مشابهة قناعة أكيدة، فإن مجرد اقتراحه بيثّ الرعب في الإسباني ويدفعه إلى الإغماء. يا ألعنرو أراندا المسكين! ما الذي كنت ستقوله لو كنت هنا لترى صديقك هذا الذي غالباً ما كان في رحلاته السابقة - حين كنت أنتَ ولشهور بحالها بعيداً عنه - يتوق إلى مجرد رؤيتك ولو لبرهة واحدة... وها هو الآن يُصاب بالرعب من مجرد التفكير في كونك قريباً منه.

في هذه اللحظة، أعلن - ضمن هدوء ثقيل - جرس صدر السفينة الساعة العاشرة على نحو أشبه بقرع كئيب لناقوس مقبرة. وكان من ضرب الجرس واحد من لاقطي نتف الجبال الشيب. حينها لفت انتباه الكابتن ديلانو الشكل المتحرك لزنجي ضخّم برز من بين الحشد العام في الأسفل، وراح يتقدم ببطء نحو السطح المرتفع في مؤخر السفينة. كان عنقه محاطاً بطوق من الحديد، ومنه كانت تتدلى سلسلة لُفّت ثلاث مرات من حول جسده. أما الحلقات الأخيرة من السلسلة فكانت قد أُقفلت معاً بشريط من الحديد هو حزامه.

همهم الخادم: «لكم يتحرك (أتوفال) كأنه أبكم».

صعد الزنجي الدرج المؤدي إلى السطح، ووقف، شأن سجين شجاع جُلب ليلتقى الحكم بالعقوبة، بصمت باسل أمام دون بينيتو الذي كان قد صحا الآن من نوبة الإغماء.

عندما لمحه لأول مرة وهو يتقدم نحوه، أجفل دون بينيتو، واجتاح وجهه ظل مليء بالامتعاض؛ كما أن شفّتيه البيضاوين التصقتا معاً كأنما من ذكرى مفاجئة لغضب غير مجدٍ.

لا بدّ أن هذا متمرد عنيد، هكذا فكر الكابتن ديلانو وهو يعاين الآن، ليس دون مزيج من الإعجاب، الشكل الضخم لذلك الزنجي.

قال الخادم: «انظر يا سيدي! إنه ينتظر سؤالك».

وحين تمّ تذكير دون بينيتو بذلك، فقد أزاح بصره بعصبية، وكأنه يتجنب جواباً مترعاً بالتمرد ومتوقفاً، ثم قال بصوت مرتبك:

«يا أتوفال، هل ستطلب العفو الآن؟».

بقي الزنجي صامتاً.

همهم الخادم وهو ينظر إلى مواطنه بانتقاد مرير: «مجدداً يا سيدي. مجدداً يا سيدي. سيخضع للسيد الآن».

قال دون بينيتو وهو ما يزال يزيح بصره بعيداً: «أجب. قل تلك الكلمة الوحيدة فحسب: (العفو)، وسوف تتحرر من أغلالك».

عندما سمع الزنجي هذا الكلام، رفع ذراعيه ببطء ثم تركهما يسقطان دون حراك، وأغلاله ترنّ، وقد طأطأها رأسه، كأنما يودّ أن يقول: «كلّا، لست راضياً عن ذلك».

قال دون بينيتو بانفعال غير واضح وغير معلوم: «امض».

أطاع الزنجي الأمر فعاد ببطء كما جاء.

قال الكابتن ديلاينو: «اعذرني يا دون بينيتو، ولكن هذا المشهد يدهشني. ما الذي يعنيه من فضلك؟».

«إنه يعني أن ذلك الزنجي وحده، دون الجميع، قد ارتكب إساءة غريبة بحقّي. وقد أمرتُ بأن يتمّ تقييده بالحديد. أنا...».

وهنا توقف عن الكلام، ويده مرفوعة إلى رأسه، وكأنما أصابه دوار أو كأن اضطراباً مفاجئاً في الذاكرة قد حلّ به. ولكنه حين شاهد النظرة المتعاطفة في عيني خادمه، فقد بدا واثقاً من نفسه، وعاد ليقول:

«لم أستطع إصدار أمر بجلده مثل هذه الهيئة البشرية. ولكنني سألته أن يطلب العفو مني. وهو لم يرضَ بذلك حتى الآن. وبناء على أوامري، فإن عليه أن يحضر ليقف أمامي مرة كل ساعتين».

«وكم مرّ من الزمن على هذا الأمر؟».

«ستون يوماً».

«وهل هو مطيع في كل ما عدا ذلك، ومتسم بالاحترام في سلوكه؟».

«أجل».

صاح الكابتن ديLANO بحماسة: «أقسم بضميري بأن لهذا الشخص روح ملكية».

أجاب دون بينيتو بمرارة: «قد يكون كذلك. فهو يقول إنه كان ملكاً في بلده».

قال الخادم: «أجل، تلك الشقوق في أذني أتوفال كانتا تحملان وتدين من ذهب. ولكن بابو المسكين هنا، كان في أرضه مجرد عبد فقير. كان بابو عبداً لزنجي، وهو الآن عبد لرجل أبيض البشرة».

التفت الكابتن ديLANO بفضول تجاه الخادم، وقد انزعج نوعاً ما من رفع الكلفة في الحديث إلى هذا الحد، ثم نظر إلى سيده بتساؤل، ولكن، وكأنما كان قد اعتاد منذ زمن على هذه التصرفات الصغيرة الخالية من الكلفة، فلم يبدُ لا على السيد ولا على الرجل أنهما يفهمانه.

سأل الكابتن ديLANO: «ما كانت الإساءة التي ارتكبتها أتوفال من فضلك؟ فهي إن لم تكن شيئاً خطيراً، فخذ بنصيحة شخص أحمق، ونظراً إلى أنه شخص طيِّع عموماً، وكنوع من الاحترام الطبيعي لروحه، فلم لا تصفح عنه».

همهم الخادم لنفسه: «كلاً، كلاً، لن يفعل سيدي هذا أبداً، على أتوفال المعتر بنفسه أن يطلب أولاً عفو السيد. العبد الذي هناك يحمل القفل، ولكن السيد هو الذي يحمل المفتاح».

لاحظ الكابتن ديLANO، الذي تمّ توجيه انتباهه على هذا النحو، ولأول مرة، إلى أن هناك مفتاحاً كان يتدلى من عنق دون بينيتو معقوداً إلى شريط من الحرير. وعلى الفور، وقد فطن إلى الغرض من المفتاح مما همهم به الخادم، ابتسم الكابتن ديLANO وقال: «إذن، يا دون بينيتو - قفل ومفتاح - رمزان هامان حقاً».

تردد دون بينيتو وهو يعضّ شفته.

على الرغم من أن ملاحظة الكابتن ديLANO - وهو رجل يتحلّى ببساطة فطرية غير قادرة على الهجاء أو التهكم - قد تمّ تجاهلها كتلميح عابث إلى سيطرة الإسباني المبرهن عليها تجاه الزنجي، إلا أن ذلك الموسوس على صحته بدا وكأنه فهمها على أنها تأمل شرير في عجزه المعترف به حتى الآن عن كسر الإرادة المنيعة لذلك العبد، وشفويّاً على الأقل. وإذا أسف الكابتن ديLANO على سوء الفهم المفترض هذا، وشعوره باليأس من إصلاح الأمر، فقد غير



موضوع الحديث. ولكنه وجد رفيقه أكثر ما يكون منفصلاً عنه، وكأنه يهضم بصعوبة ثفل الإهانة المفترضة المذكورة أعلاه؛ فأصبح الكابتن ديLANO أقل ميلاً إلى الكلام، ومغموماً دون إرادة منه، وذلك بسبب ما بدا على أنه الانتقام السري للإسباني الحساس على نحو مرضي. ولكن البحار الطيب، وهو ذو طبع معاكس لذلك، تمنع من جانبه عن أن يبدي مظهر الامتعاض، وعلى الرغم من صمته، فقد كان هذا الصمت مجرد عدوى.

والآن راح الإسباني، يسانده في ذلك خادمه، يعبر متجاوزاً ضيفه بفظاظة، وكان يمكن فهم هذا السلوك - وهو أمر مفهوم إلى حد كاف - على أنه نزوة صغيرة ناجمة عن سوء المزاج، لولا أن السيد والخادم، وقد توقفا عند ركن المنور، بدأ يتهامسان معاً بصوت خفيض. كان هذا أمراً لا يدعو إلى السرور. وعلاوة على ذلك، كان مظهر الإسباني يدل على سوء المزاج الذي لم يكن يخلو أحياناً من وقار مريض، وها هو يبدو الآن خالياً من أي وقار. كما أن الألفة الممتهنة التي يبديها الخادم قد فقدت فتنها الأصلية التي توحى بالمودعة النابعة من طيبة القلب.

ولشعوره بالإحراج، التفت الزائر إلى الجانب الآخر من السفينة. وحين فعل ذلك، فإن نظره وقع صدفةً على بحار إسباني شاب، وقد حمل بيده لفة حبال، وكان قد هبط للتو من على ظهر السفينة إلى الحلقة الأولى من سارية الميزان. ربما لم تتم ملاحظة هذا الرجل على نحو خاص، لولا أنه خلال صعوده إلى واحدة من عوارض الشراع، فقد أبقى نظره، بنية خفية مثبته على الكابتن ديLANO، ثم انتقلت الآن، وكأنما بتسلسل طبيعي، إلى الرجلين المتهمسين.

وهكذا فإن الكابتن ديLANO، قد أجفل حين انتقل انتباهه إلى تلك الجهة. ومن شيء في أسلوب دون بينيتو في تلك اللحظة بالذات، بدا وكأن الزائر كان - جزئياً على الأقل - موضوع التشاور الجانبي الجاري... وهذا حدس لم يكن ساراً للضيف كما لم يكن بالقدر نفسه مشعراً المضيف بالإطراء.

كان التناوب الفريد في سلوك الإسباني ما بين اللطف وقلة التهذيب شيئاً غير قابل للتعليل، باستثناء أن يكون السبب فيه واحداً من افتراضين: الجنون البريء أو الخداع الشرير.

ولكن الفكرة الأولى، على الرغم من أنها قد تكون خطرت على نحو طبيعي لملاحظ غير مبال، وبالتالي فهي ليست غريبة على تفكير الكابتن ديLANO، إلا أنه بدأ الآن وبأسلوب أولي يعتبر سلوك ذلك الشخص الغريب على أنه لو كان إهانة مقصودة، فإن فكرة الجنون لم تعد

واردة. ولكن لو لم يكن هذا مجنوناً، فما هو إذن؟ بموجب الظروف السائدة، هل يمكن لجنتلمان، أو لشخص جلف إنما شريف، أن يلعب الدور الذي لعبه مضيفه؟ إذن، فهذا الرجل محتال. لا بدّ وأنه مغامر وضع النسب يتنكر بزّي نبيل أوقيانوسي، ولكنه شديد الجهل بالمستلزمات الأولية للجنتلمان، وهذا ما برهن عليه بتصرفه الحالي غير اللائق إلى حدّ كبير. كما أن الولوج الغريب بالرسميات أيضاً، قد بدا في أحيان أخرى، أمراً مميزاً لشخص يلعب دوراً يفوق مستواه الحقيقي. بينيتو سيرينو - الدون بينيتو سيرينو - اسم رنان، وهو أيضاً اسم كان في تلك الفترة الزمنية معروفاً - أي الكنية «سيرينو» - لقباطنة السفن ذات الحمولات الكبيرة والقباطنة البحريين العاملين على امتداد البرّ الرئيس الإسباني، على أنه ينتمي إلى واحدة من أكبر الأسر التجارية المغامرة والكبيرة في جميع تلك الأقاليم. كما كان عدد كبير من أفراد هذه الأسرة من حملة الألقاب النبيلة. إنها أشبه بأسرة قشتالية ولكنها من طراز أسرة روتشيلد البريطانية، ولها أخ نبيل أو ابن عم نبيل في كل مدينة تجارية في أمريكا الجنوبية. كان دون بينيتو المزعوم هذا ما يزال شاباً، ربما هو في سنّ التاسعة والعشرين أو الثلاثين عاماً. إن تظاهره بكونه عضواً شاباً من شبان مثل تلك الأسرة، ناشطاً في أعمالها البحرية، تبدو ويا للعجب خطة معقولة لشاب وغد ذي موهبة وروح؟ ولكن ذلك الإسباني كان شخصاً مريضاً وشاحباً. لا يهّم. فحتى لو كان يتظاهر بأنه مصاب بمرض مميت، فإن بعض أصحاب الحيل عرفوا بقدرتهم على النجاح في ذلك. وأن يفكر في ذلك، تحت التظاهر بالضعف الصبباني، فإن أكثر الطاقات وحشية يمكن أن تكون كامنة في ذلك... إن ذلك المخمل الذي يرتديه هذا الإسباني ما هو سوى البرثن الحريري لمخالبه.

لم تكن هذه التخيلات نابعة من أيّ سلسلة من الأفكار؛ ليس من الداخل ولكن من الخارج. وعلى نحو فجائي أيضاً، وفي دفعة واحدة، شأن الصقيع الفجائي الذي سرعان ما يتلاشى مع عودة الشمس الرقيقة، شمس طيبة قلب الكابتن دي لانو إلى الشروق.

وإذ رنا بنظره مرة أخرى إلى مضيفه - الذي كان وجهه واضحاً له من الجانب فوق الكوة وقد التفت باتجاهه - فقد ذهل من تلك الصورة الجانبية للوجه الذي كان يبدو شديد النحول بسبب اعتلال الصحة، كما كان يوحي بالنبالة عند الذقن بسبب اللحية. لا مجال للشك. إنه فرع أصيل من أسرة سيرينو الإسبانية النبيلة.

وإذ شعر بارتياح بسبب هذه الأفكار وأفكار أخرى، بدأ الزائر الآن، وهو يندندن بلحن ما بصوت خافت، يقطع السطح جيئة وذهاباً، حتى لا يوحي لدون بينيتو بأنه قد ارتاب به نظراً

لفظاظته، أو لنفاقه ولو إلى حدّ أقل بكثير. فمثل هذا الارتياب سيتبين فيما بعد أنه وهمي، وفي هذا الخصوص على أيّ حال، فإن الظرف الذي أثار ذلك الارتياب ما يزال دون تفسير. ولكن متى سينجلي سرّ هذه الأحجية الصغيرة، فإن الكابتن ديلاانو، كما يظن هو، ربما سيندم إلى حدّ كبير لو أنه سمح لدون بينيتو بأن يعي بأنه قد انغمس في ظنون غير لائقة. وباختصار، فإنه من الأفضل، أمام غموض تصرف ذلك الإسباني أن يترك له المجال ليفسر ما حدث في وقت لاحق.

في الوقت الحاضر، تحرك الإسباني - ووجهه مرتعش ومتبلّد - وهو ما يزال يستند إلى خادمه، نحو ضيفه، وهنا جرت المحادثة التالية بينهما والإسباني يتكلم في حالة من الحرج وبلهجة غريبة توحى بالكيد وبهمس أجش:

«يا سينيور، هل لي أن أسألك متى رسوت على شاطئ هذه الجزيرة؟».

«أوه، حدث ذلك قبل يوم أو يومين يا دون بينيتو».

«وما هو آخر ميناء توقفتم فيه؟».

«كانتون».

«وهناك يا سينيور بادلتم فروات الفقمت خاصتكم بالشاي والحرير، كما سبق وقلت لي».

«أجل، الحرير على الأغلب».

«وهل استلمتم الرصيد نقداً، على الأرجح؟».

هنا تمللم الكابتن ديلاانو قليلاً، ثم أجاب قائلاً:

«أجل، بعض النقود الفضية، ليس الكثير منها على أيّ حال».

«آه... حسناً. هل لي أن أسأل كم عدد رجالك يا سينيور؟».

أجفل الكابتن ديلاانو قليلاً، ولكنه أجاب قائلاً:

«حوالي خمسة وعشرين، إجمالاً».

«وفي الوقت الحاضر، هل هم جميعاً على متن السفينة، على ما أفترض؟».

«هم جميعاً على متن السفينة يا دون بينيتو»، هكذا أجاب الكابتن بارتياح الآن.

«وسيكونون كذلك هذه الليلة يا سينيور؟».

لم يستطع الكابتن ديLANو، عندما سمع هذا السؤال الذي جاء بعد الكثير من الأسئلة الملحّة، سوى أن ينظر على نحو جدّي نحو الذي طرح السؤال الذي بدل أن يبادلّه النظر، رمى بنظره إلى ظهر السفينة وقد بدت عليه كل أمارّة من أمارات القلق الجبان. وكان في تصرفه هذا تباين حقير مع تصرف خادمه الذي كان في ذلك الحين بالضبط قد ركع عند قدمه وهو يعدل له بفضول متواضع، إبزيم حذائه، ووجهه في هذه الأثناء مرفوع نحو وجه سيده المكتئب.

كرّر الإسباني السؤال وهو ما يزال يتصرف كشخص مذنب:

«و... وسيكونون كذلك هذه الليلة يا سينيور؟».

أجاب الكابتن ديLANو: «أجل، حسب ما أعرف. ولكن كلاً». وهنا عاد ليقول الحقيقة بشجاعة: «تحدث البعض منهم عن الانضمام إلى فريق صيد حوالي منتصف الليل». «أعتقد أن سفنكم... لا تبحر إلا مسلّحة تقريباً كما أعتقد يا سينيور، أليس كذلك؟».

كان الجواب الجريء اللامبالي: «أوه، لدينا مدفع أو اثنان من عيار ستة باوندات في حال الطوارئ، مع مجموعة صغيرة من الغدّارات ورماح صيد الفقمات والسيوف الثقيلة المقوسة، كما تعرفون».

بينما كان يجيب على هذا النحو، نظر الكابتن ديLANو مجدداً إلى دون بينيتو، ولكن هذا أشاح بعينه بعيداً. وبينما كان يغيّر الموضوع فجأة وباضطراب، فقد ألمح بملل إلى السكون الحالي للرياح، ثم ودون أن يعتذر، انسحب مرة أخرى مع خادمه نحو حاجز السفينة المقابل لهما حيث استأنفا الهمس.

في هذه اللحظة، وقبل أن يتمكن الكابتن ديLANو من التأمل بهدوء فيما جرى للتوّ، هبط البحار الإسباني الشاب، المذكور سابقاً، من حبال الأشرعة، وانحنى ليقفز إلى متن السفينة، فانفتحت كنزته الفضفاضة (أو قميصه) المحوكة من الصوف الخشن هابطة إلى صدره، فكشفت عن لباس داخلي متسخ من الكتان الجيد، وكان يزينه عند الرقبة شريط أزرق رفيع وقد اهترأ وبهت لونه على نحو يثير الحزن. في هذه اللحظة، فإن عين البحار الشاب تركزت مرة أخرى على الشخصين المتهمسين، وظن الكابتن ديLANو أنه لاحظ دلالة كامنة في تلك النظرة، كأنما كان فيها إشارات صامتة، من نوع الإشارات المألوفة لدى أعضاء الجمعية

الماسونية، وقد تمّ تبادلها لبرهة فيما بينهما.

وهذا ما جعل نظرتّه تتجه مرة أخرى نحو دون بينيتو، وكما جرى من قبل، لم يستطع سوى أن يستنتج أنه كان بالذات موضوع التشاور.

توقف. كان صوت شحذ البلطات يصل إلى أذنيه. ألقى نظرة جانبية سريعة أخرى إلى ذينك الشخصين. تبديا له وكأنهما متآمران. وفيما يخص الاستجواب السابق، وحادثة البحار الشاب، بدأت هذه الأمور تعيد الشك لإرادياً إلى نفسه، ولكن السذاجة الفريدة لهذا الأمريكي لم تستطع تحمّله. رسم على وجهه تعبيراً مرحاً وظريفاً، ومرّ بدينك الشخصين بسرعة وهو يقول: «ها، يا دون بينيتو، يبدو أن زنجيك هذا موضع ثقة كبيرة لديك؛ لكأنه نوع من المستشارين الخصوصيين في الواقع».

عندما سمع الخادم هذا الكلام، رفع نظره وابتسامة ودية تلوح على شفّيته، ولكن السيد أجفل كأنما تلقى عضة سامة. وقد مرّت برهة أو اثنتان قبل أن يستعيد الإسباني أنفاسه مجدداً ويجيب. وأخيراً قال بتحفظ بارد: «أجل يا سينيور. أنا أثق بابابو».

عندها، فإن بابو نظر إلى سيده وهو يغيّر ابتسامته السابقة ذات المرح الحيواني المجرّد محولاً إياها إلى ابتسامة ذكية.

حين وجد الكابتن ديLANO القبطان الإسباني وقد وقف صامتاً ومتحفظاً، كأنما لإرادياً، أو أنه كان يوحى إلى ضيفه عن عمد بأن اقترابه منهما لم يكن بالأمر الملائم، فقد تلفظ بملاحظة تافهة وتحرك مبتعداً، وهو غير راغب في أن يبدو فظاً حتى أمام الفظاظه عينها. راح يتأمل مجدداً ومرة أخرى في السلوك الغامض لدون بينيتو سيرينو.

كان قد هبط من على السطح المرتفع الذي في مؤخر السفينة، وبدأ يعبر بوبياً معتماً يؤدي إلى السطح الأدنى للسفينة، وهو غارق في أفكاره، حين أدرك وجود حركة هناك، فنظر ليرى من الذي كان يتحرك. في اللحظة نفسها، كان هناك تلؤلؤ في البويب المعتم، وشاهد واحداً من البحارة الإسبان وهو يجوس خلسة وبسرعة هناك، ويضع يده في صدر كنزته، كأنه يخفي شيئاً. وقبل أن يتأكد الكابتن ديLANO من هوية الشخص انزلق هذا مبتعداً. ولكنه شاهد منه ما يكفي ليتأكد من أنه كان البحار الشاب نفسه الذي شاهده سابقاً عند حبال الأشرعة.

ما كان ذاك الشيء الذي أطلق ذلك التلؤلؤ؟ هكذا راح الكابتن ديLANO يفكر. لم يكن مصباحاً - ولا عود ثقاب - ولا جمرة. هل يمكن أن تكون جوهرة؟ ولكن كيف جرى أن

يملك البحارة الجواهر؟ وكيف أمكن أن يرتدي بحار قميصاً داخلياً ذا زركشة حريرية؟ هل كان يسرق أمتعة مسافري القمرات الميتين؟ ولكن إن كان الأمر كذلك، فإنه ما كان ليرتدي واحداً من الأشياء المسروقة على متن السفينة هنا. آه، آه... لو كانت تلك إشارة سرية بالفعل شاهدتها تمرّ بين هذا الشخص المريب وقبطانه قبل قليل، لو كنت أستطيع أن أكون على ثقة من أن حواسي لا تخونني - بسبب قلقي - عندها...

والآن، كان ذهنه الذي ينتقل به من شيء مريب إلى آخر، قد راح يدور حول أسئلة غريبة تتعلق بهذه السفينة.

وبصدفة غريبة، وحين راح يستذكر كل أمر على حدة، بدا السحرة السود من الأشانتي الذين كانوا يشحذون بلطاتهم، كأنما كانوا يعلقون على نحو منذر بالشرّ على أفكار هذا الشخص الغريب الأبيض البشرة. وإذ راحت تضغط عليه هذه الألباز والأمر المنذرة بالشرّ، فقد بدا الأمر وكأنه يناقض الطبيعة تقريباً، لولا الهواجس المنذرة بالشرّ التي راحت تقتم ذهنه، وهذا ما يجب أن يحصل حتى لأقل القلوب نزوعاً إلى الريبة.

بدأ الملاح الشجاع يرتجف من أفكار لم يجرؤ على الاعتراف بها لنفسه إلا بالكاد، وذلك وهو يراقب ما يحدث للسفينة، بأشعتها المسحورة، وقد أضحت الآن تحت سيطرة التيار البحري الذي أخذ يدفعها بسرعة متزايدة نحو البحر. كما أخذ يلاحظ أن سفينة صيد الفقمات قد أصبحت مخفية عن الأنظار، خلف بروز للبرّ وقف حائلاً دون إمكانية مشاهدتها. وعلاوة على ذلك كله، فقد بدأ يشعر بخوف شبحي من دون بينيتو. ومع ذلك، فحين عاد ليسترد وعيه ويتنفس الصعداء، شعر أنه قوي في وقفته، وبدأ يتأمل برباطة جأش: ما هي حكاية هذه الأشباح؟

لو كان لدى الإسباني أيّ خطة شريرة، فلا بدّ أنه ستكون موجهة ليس إليه (أي الكابتن ديلاانو)، بل بالأحرى إلى سفينته (متعة العازب). وبناء عليه، فإن الانجراف الجاري الآن لهذه السفينة عن الأخرى، وبدلاً عن أن يكون لصالح أيّ خطة محتملة، فإنه في الوقت الحاضر على الأقل غير مؤاتٍ لها. من الواضح أن أيّ شك، يجمع مثل هذه التناقضات، لهو شك وهمي. وإلى جانب ذلك، أليس من الغريب التفكير في سفينة في حالة من الخطر - سفينة قضى الوباء على معظم أفراد طاقمها - سفينة يعاني من عليها من العطش - أليس غريباً ألف مرة أن مثل هذه السفينة قد تكون حالياً سفينة قرصنة؟ أو أن قائدها، إما من أجل نفسه أو من أجل من هم تحت إمرته، ومن أجل الظمأ على الخصوص، لا يرغب حقاً سوى

في الفرج العاجل والانتعاش ولا شيء آخر؟ ولكن، ألا يمكن إذن أن يكون هذا الوضع الحرج والعطش على وجه الخصوص مصطنعين؟ وأليس من المحتمل أن هذا الطاقم الإسباني الكامل نفسه، الذي يُزعم أنه هلك إلا أقله، هو في هذه اللحظة بالذات كامناً في عبر السفينة؟ هناك شياطين في أشكال بشرية سبق أن اقتحموا مساكن منعزلة متوسلين بأسلوب مليء بالحسرة كوباً من الماء البارد؛ ولم يغادروا إلا بعد ارتكاب فعل شرير. ومن المعروف عن القراصنة الملاويين أنهم يغرون السفن باللحاق بهم إلى موانئهم الغادرة، أو يخدعون ركاباً من سفينة عدوة في عرض البحر بمشهد من طاقم قليل العدد أو بظهر سفينة فارغ يكون كامناً تحته مئة رمح وأذرعة صفر مستعدة للطعن بها عبر الحُصْر. لا يعني ذلك أن الكابتن ديLANO يصدق تماماً مثل هذه الأمور. لقد سمع بها، والآن هي تعود إلى ذهنه كحكايات. المكان المقصود للسفينة هو المرسى. وهناك ستكون قريبة من سفينته هو. لدى اقترابها منها على هذا النحو، ألا يمكن لـ «سان دومينيك»، كبركان هاجع، أن تطلق فجأة طاقات هي الآن مخبأة؟

تذكر الآن أسلوب الإسباني وهو يروي الحكاية. كان هناك تردد وتحايل كثبان في ذلك الأسلوب. كان ذلك أسلوب شخص يخترع حكاية لأغراض شريرة. ولكن لو كانت تلك الحكاية غير صادقة، فما هي الحقيقة؟ إن السفينة أصبحت تحت سيطرة الإسباني بطريقة غير شرعية؟ ولكن في الكثير من تفاصيلها، وخاصة فيما يتعلق بالأجزاء الكارثية منها، فإن مثل هذا الهلاك بين البحارة والانجراف المطول في البحر، والمعاناة السابقة من حالات سكون الرياح الطويلة، ومن العطش المستمر، في كل هذه الأمور كما في أمور أخرى، فإن حكاية دون بينيتو لم تثبت الصيحات الباكية من الحشد غير المميز، البيض منهم والسود فحسب، بل أيضاً ما بدا على أنه ما كان يمكن أن يكون مزيفاً... التعبير على وجوه البشر الذي رآه الكابتن ديLANO. لو كانت حكاية دون بينيتو مخترعة بأكملها، فإن كل شخص على متن السفينة، وحتى أصغر الزنجيات سناً، كان منخرطاً في الخطة: وهذا استنتاج يصعب تصديقه. ومع ذلك، لو كان هناك سبب للارتياب في صحة ذلك، فإن هذا الاستنتاج مشروع حقاً.

ولكن تلك الأسئلة تخصّ القبطان الإسباني. هل يمكن للمرء بالفعل أن يتوقف متأملاً. ألم يبدُ عليهم أنهم كانوا مشغولين جداً بالموضوع نفسه الذي يستطلع به اللص أو القاتل المحترف نهاراً جدران منزل ما؟ ولكن لو كانت هناك أهداف شريرة، فكيف يلتمسون مثل هذه المعلومات بصراحة من الشخص الرئيس المعرض للخطر، وبالتالي، فإنهم سيجعلونه يتوخّى الحذر؟ لكم هو هذا الإجراء غير محتمل! من الغريب إذن أن نفترض أن هذه الأسئلة

قد كان الدافع وراءها مكائيد شريرة. وهكذا، فإن هذا السلوك نفسه الذي أثار هنا هذا القلق، من شأنه أن يبدده. وباختصار، فإنه قد صرف عن ذهنه أيّ شك أو قلق مهما كان معقولاً من حيث المظهر في ذلك الوقت، والذي هو الآن غير ذلك.

وأخيراً بدأ يضحك من مخاوفه ويضحك من السفينة الغريبة التي أثارت مثل هذه المخاوف؛ ويضحك من الزوج الغربي المظهر، وخاصة أولئك العجائز الذين يشحذون المقصات، الأشانتي، وأولئك النسوة العجائز الطريحات الفراش اللواتي يقمن بالحياكة، ولاقطي نتف الحبال؛ وكذلك تقريباً من الإسباني نفسه، الغول الرئيس بينهم.

أما بالنسبة إلى البقية، فالذي بدا على نحو جدّي على أنه لغز أصبح الآن مفسراً على نحو ودّي بالفكرة التي مؤداها أن ذلك المريض المسكين ما كان يعرف إلا بالكاد ما الذي كان يجري من حوله. فإما أنه كان واجماً في أبخرة سود، أو يطرح أسئلة تافهة لا مغزى منها ولا هدف. من الواضح أن ذلك الرجل لم يكن في الوقت الحالي مؤهلاً ليكون مسؤولاً عن السفينة. يمكن التذرع بالنية في فعل الخير، فيتمّ إقصاؤه عن قيادة السفينة، ويمكن للكابتن ديلاانو أن يوجه السفينة إلى ميناء كونثبسيون، على أن يقودها معاونه الثاني، وهو شخص موضع ثقة وربّان جيد... وهذه الخطة ملائمة لسان دومينيك أكثر بقدر ما هي ملائمة لدون بينيتو، فهو - كونه مريضاً - سيتحرر من دواعي قلقه، ويمكنه في قمرة تحت رعاية خادمه. وفي نهاية الرحلة ربما سيستعيد عافيته ويعود إلى قيادة سفينته.

كانت هذه هي أفكار الأمريكي. وكانت أفكاراً تهدئ الخواطر. كان هناك فرق بين فكرة أن يكون دون بينيتو يرسم مصير الكابتن ديلاانو على نحو غامض، وفكرة أن يكون الكابتن ديلاانو هو الذي يرتب برفق مصير دون بينيتو. وعلى الرغم من ذلك، شعر الملاح الطيب بشيء من الراحة دون شك حين أبصر الآن زورقه الخاص بصيد الحيتان قريباً من هذه السفينة. وكان غيابه قد طال بسبب تأخير غير متوقع من جانب سفينة صيد الفقمة، كما أن رحلة عودته طالت بسبب التراجع المتواصل لسان دومينيك بسبب الجزر.

لاحظ الزوج تلك البقعة البعيدة المتقدمة نحو السفينة. لفتت صرخاتهم انتباه دون بينيتو، الذي عبّر بلطف وهو يقترب من الكابتن ديلاانو عن رضاه لقاء وصول المزيد من الإمدادات، رغم أنها كانت قليلة ومؤقتة على أيّ حال حسب الظروف.

أجاب الكابتن ديلاانو على ذلك. ولكنه خلال قيامه بذلك، فقد لفت انتباهه شيء ما كان



يحدث على المتن في الأسفل: بين الحشد الذي كان يتسلق الزافرات ويراقب بلهفة الزورق القادم، فإن زنجيين اثنين، وقد أخذ أحد البحارة يضايقهما، دفعا به بعيداً عنهما، فانزعج البحار من ذلك التصرف، فدفعاً به إلى السطح، على الرغم من الصرخات الجادة للاقطي نتف الحبال.

قال الكابتن ديLANو بسرعة: «يا دون بينيتو، ألا ترى ما يحدث هناك؟ انظرا!».

ترنح الإسباني وقد غلبه السعال، فوضع كلتا يديه على وجهه، وكان على وشك السقوط. كان من شأن الكابتن ديLANو أن يسنده، إلا أن الخادم الذي كان يقظاً مرة أخرى، دعم سيده بيد وبالأخرى قدم له الدواء المنعش. استعاد دون بينيتو وعيه، وابتعد عنه جانباً ذلك الزنجي، إلا أنه بقي - بدافع من الواجب - ضمن مرمى همسة من السيد. إن هذا التصرف الحميد قد جعل الزائر يلغي أي عيب في تصرف الخادم كان قد نجم عن التشاورات غير اللائقة المذكورة سابقاً. لقد أظهر ذلك أيضاً أنه لو كان اللوم يقع على الخادم، إلا أن الخطأ هو من السيد نفسه، فهو حين يترك وحيداً، يستطيع أن يتصرف جيداً.

لم يستطع الكابتن ديLANو، وقد انجذب نظره بعيداً عن مشهد الفوضى إلى ذلك المشهد السارّ أمامه، أن يتجنب تهنئة مضيفه مجدداً على حيازته لمثل هذا الخادم الذي، على الرغم من أنه شديد التطرف بعض الشيء بين الحين والآخر في تصرفاته، إلا أنه في المجمل خادم لا يُثمن بالنسبة إلى شخص مريض.

أضاف قائلاً وهو يبتسم: «قل لي يا دون بينيتو، أودّ لو أحصل على رجلك هذا شخصياً... كم ستطلب ثمناً له؟ هل يمكن لخمسين دوبلون (عملة إسبانية ذهبية) أن تكون كافية؟».

همهم الزنجي وقد استرق السمع إلى ذلك العرض وحسبه جيداً، فقال بالغرور الغريب لعبد وفيّ يقدره سيده، مزدرياً سماعه مثل هذا التقييم الرديء من قبل شخص غريب: «سيدي لن يقبل أن يتخلى عن بابو حتى ولو بألف دوبلون». ولكن دون بينيتو أجاب بصوت متقطع، وذلك وهو لم يسترد وعيه بالكامل على ما يبدو، وراح سعاله يقاطعه من جديد.

سرعان ما تدهورت حالته الصحية إلى حدّ كبير مما أثر على عقله أيضاً، كما كان جلياً، فقام الخادم باصطحاب سيده إلى الأسفل، كأنما لإسدال الستارة على مشهد حزين.

وهكذا بقي الأمريكي وحيداً، وحتى يقتل الوقت بانتظار وصول قاربه، كان سيسرّه أن يبادر بالكلام القليل واحداً من البحارة الإسبان الذين كان يشاهدهم؛ ولكنه تذكر شيئاً ما قاله دون

بينيتو عن سلوكهم الرديء، فامتنع عن ذلك. وهو كرتان سفينة لم يكن راغباً في تشجيع جن البحارة أو عدم وفائهم.

وبينما وقف وهو يتأمل في هذه الأفكار ونظره موجه إلى تلك الحفنة من البحارة، فكر فجأة بأن واحداً أو اثنين منهم بادلاه النظر بنوع من المغزى. فرك عينيه، ونظر مجدداً. ومن جديد بدا له أنه يرى الشيء نفسه. وبموجب شكل جديد، إنما أكثر غموضاً من أي شكل سابق، عادت إليه شكوكه السابقة، ولكن في غياب دون بينيتو، فقد كان ذلك مرافقاً بهلع أقل حدة. وعلى الرغم من الوصف الرديء الذي أعطي عن البحارة، إلا أن الكابتن ديLANO قرر حالاً أن يبادر أحدهم بالكلام. هبط من السطح، ومرّ عبر الزنوج، وقد تسببت حركته في صدور صرخة غريبة من لاقطي نتف الحبال، ومن الزنوج الذين راح الواحد منهم يشد الآخر جانباً، وقد تفرقوا أمامه. ولكن وكأنهم كانوا يشعرون بالفضول تجاه الغاية من زيارته المتعمدة للغيثو الخاص بهم، فقد تجمعوا خلف الشخص الغريب بنظام مقبول، ولحقوا به. وهكذا أعلن عن تقدم الكابتن ديLANO بمبشرين من الفرسان، ويرافقه حرس شرف من الزنج، ولكنه اتخذ هيئة ودودة مرتجلة، واستمر في التقدم، وهو يتلفظ بكلمة مرحة للزنوج، وعينه تراقب الوجوه البيض، المختلطة بشكل متناثر مع الوجوه السود، شأن البيادق البيض المنخرطة في صفوف البيادق السود المقابلة لها (على رقعة الشطرنج).

وبينما راح يفكر فيمن يختار من بينهم من أجل غرضه، فقد صدف أن لاحظ بحاراً جالساً على ظهر السفينة منهمكاً في طلي رباط بكرة بالقار، وحلقة من الزنوج قد أقعوا من حوله بتساؤل وهم يتفرجون على ما يفعله.

كان العمل الوضيع الذي يقوم به متنافياً مع شيء ما متشامخ في سيمائه. كانت يده مسودة من إقحامه لها في وعاء القار الذي يمسكه له أحد الزنوج، ولم يبدُ وجهه ملائماً له، فهو وجه كان من شأنه أن يبدو وسيماً جداً لولا أنه ساهم التعابير. وهو لم يستطع أن يقرر إن كان لهذا علاقة بالإجرام، بما أن الحرارة والبرد الزائدين يتسببان في مثل هذه الأحاسيس، وكذلك البراءة والإثم اللذين عبر ارتباطهما العرضي بالألم الذهني، الذي يترك بصمته على أي علامة مرئية ويستخدم ختماً واحداً مثل الندوب على وجه مرهق.

لم تخطر هذه الفكرة في ذهن الكابتن ديLANO مجدداً هذه المرة، وهو ذلك الرجل الخير. ولكن خطرت له فكرة أخرى. لأنه لاحظ ذلك الهزال الفريد متحداً مع عينين سوداوين وقد راحتا تحولان عنه بقلق وخجل. ثم تذكر من جديد رأي دون بينيتو حين اعترف له بأنه لا

يظن ظناً حسناً بطاقمه، ولهذا بدأت أفكار عامة معينة تفعل فعلها فيه، أفكار كانت تفصل الألم والارتباك عن الفضيلة، ثم تربطها بثبات بالرديلة.

لو كان هناك فعلاً أيّ شرّ على متن هذه السفينة، كما فكّر الكابتن ديLANو، فلا شك أن هذا الرجل قد لوّث يده به، وهو يلوّثها الآن بالقار. لا أريد أن أبادره بالكلام. سأخاطب هذا الشخص الآخر، البحار العجوز عند مرفاع المرساة.

تقدم نحو العجوز البرشلوني الأسمر الذي يرتدي بنطالاً أحمر رثاً وقلنسوة نوم قدرة، وقد اتخذت وجنتاه واسمراً. كانت لحيته كثيفة شأن سياح من الشوك، ويجلس بين أفريقيين يبدوان نائمين، وقد راح يصلح - شأن زميله الأصغر سنّاً - أحد الأشرعة، فيقرن حبلاً مع آخر، والزنجيان اللذان يبدوان نائمين يؤديان له وظيفة الإمساك بالأجزاء الخارجية من الحبال.

لدى اقتراب الكابتن ديLANو، أدلى الرجل برأسه إلى مستوى أخفض من السابق؛ المستوى الضروري للعمل الذي يؤديه. بدا عليه أنه يرغب في أن يُظن بأنه منكم في مهمته بإخلاص أشد ما يكون مألوفاً. وحين تمّت مخاطبته، رفع نظره، ولكن بسيماء بدت ماهرة ومتحدية، ارتسمت على نحو غريب فوق وجهه الذي تعاورته عوامل الطقس، لكأنه دُبّ أشيب راح يبتسم بتكلف ويرمي بنظرات هيوب كما هي نظرات الغنم بدلاً عن أن يهرّ ويعضّ. طُرحت عليه بضعة أسئلة عن الرحلة البحرية... أسئلة تشير عن عمد إلى تفاصيل متعددة تتعلق بحكاية دون بينيتو، ولم يتمّ تأييدها من قبل تلك الصرخات الملحة التي قوبل بها الزائر حين صعد إلى متن السفينة لأول مرة. أُجيب عن الأسئلة باختصار، وأكدت الإجابات على كل ما كان متبقياً ليتمّ تأكّيده من الحكاية. كان الزنوج الجالسون عند مرفاع المرساة قد انضموا إلى البحار العجوز؛ ولكن حين بدؤوا يثرثرون، سكت هذا تماماً، ثم كلع وجهه أخيراً، وبدا غير راغب - على نحو نكد - في الإجابة عن المزيد من الأسئلة. ومع ذلك، وطوال تلك الفترة، بدت سيماءه الدبّية ممزوجة بسيماء كسيماء الغنم.

تحدث الكابتن ديLANو إلى الزنوج بأسلوب لطيف كي يخلو له المجال ليمرّ، وبعد أن يئس من إمكانية الدخول في حوار صريح مع قنطور كذاك، وبعد أن بحث بنظره عن وجه واعد، لم يجده؛ وبالتالي عاد إلى السطح بين مختلف الابتسامات والتكشيرات؛ وقد انتابه شعور غريب في البداية دون أن يتمكن من معرفة السبب. ولكنه استعاد أخيراً الثقة بينيتو سيرينو.

لكم أبدى ذلك الملتحي العجوز مشاعر غير ودّية. لا شك أنه حين رأني متجهاً إليه، فقد خشي أن أبادره بكلام قاس نظراً إلى ما قد يكون قبضانه قد ذكره فيما يخص السلوك العام لطاقمه؛ فطأ رأسه. ومع ذلك... الآن حين أفكر في الأمر، فإن ذلك الرجل العجوز نفسه، إن لم أكن مخطئاً، هو واحد ممن يبدو عليهم أنهم يراقبونني منذ مدة. آه، هذه التيارات تدير رأسي كما تدير السفينة. هاهه، هناك الآن نوع من المشهد المرح، وهو مشهد أنيس تماماً أيضاً.

وقد لفت انتباهه زنجية نائمة، وقد بدت عبر تخريجات بعض حبال الصواري، وكانت مضطجعة، وأوصالها الشابة مكشوفة بلا مبالاة تحت حاجز السفينة؛ وكأنها ظبية نائمة تحت جرف غابة. وكان يستلقي على صدرها المحتضن خشفها المستيقظ والعاري تماماً، وجسده الأسود الصغير نصف مرتفع عن ظهر السفينة ويشكل صليباً مع جسد أمه. أما يده الأشبه بكفي حيوان ذي براثن، فكانتا تتمسكان بها. كان يحاول دون نجاح أن يرضع بتحريك فمه وأنفه، ويصدر في الوقت نفسه نصف نخرة مغيظة تختلط مع الشخير الهادئ للزنجية.

وأخيراً أيقظ الأم النشاط غير المألوف للطفل. أجفلت وهي ترى الكابتن ديLANو على مسافة قريبة. ولكن وكأنما دون اكتراث منها، ودون أيّ اهتمام بالوضعية التي كانت تضطجع بها، فقد أمسكت بالطفل بابتهاج ومرح أمومي وراحت تغمره بالقبلات.

ها هي أمامك طبيعة عارية الآن، رقة وحبّ صافيان، هكذا فكر الكابتن ديLANو وقد دخل السرور إلى قلبه.

وقد جعله هذا المشهد ينتبه إلى الزنجيات الأخريات على نحو أشد خصوصية من قبل. لقد سرّه سلوكهن: فقد بدون شأن النساء الأشد افتقاراً إلى التمدن وكأنهن يتمتعن بقلب رقيق وجسد قوي، كما كنّ مستعدات على حدّ سواء للموت في سبيل أطفالهن أو القتال من أجلهم. لقد كنّ على الطبيعة شأن إناث الفهد، ومحبات كالحمامات. آه، فكر الكابتن ديLANو، هؤلاء ربما بعض النساء ممن شاهدن «لديارد»<sup>3</sup> في أفريقيا، ووصفهن على ذلك النحو النبيل جداً.

وقد عمّقت هذه المشاهد الطبيعية ثقته وطمأنينته دون أن يدري. وقد نظر أخيراً ليري كيف يتقدم زورقه من السفينة، ولكن هذا كان ما يزال بعيداً جداً. التفت ليري إن كان دون بينيتو قد عاد، ولكنه لم يكن قد عاد بعد.

لتغيير المشهد، وكذلك ليسلي نفسه بمراقبة متمهلة للزورق القادم، فقد تخطى سلاسل سارية الميزان وشق طريقه نحو شرفة ميمنة السفينة - واحدة من تلك الشرفات ذات الطراز الفينيسي (نسبة إلى فينيسيا أو البندقية) المهجورة والتي ذكرت سابقاً - المنعزلة عن ظهر السفينة. وما إن داست قدمه تلك الطحالب البحرية نصف الرطبة ونصف الجافة التي ملأت المكان، فإن مخلب قطّ شبحي - جزيرة صغيرة من النسيم غير مرحب بها ولم يلحق بها شيء - روّحت فوق وجنتيه. وحين وقع نظره على ذلك الصف من الأضواء الصغيرة المطفأة والمستديرة - وكلّها مغلقة شأن العيون النحاسية للتابوت - وعلى باب الكابين الملكي الذي كان يتصل ذات مرة بالشرفة الجانبية، حتى لو كانت الأضواء الميته قد أطلّت عليه ذات مرة؛ إلا أنه كان الآن مسدود الشقوق كغطاء تابوت حجري. كما وقع نظره على لوح زجاجي وعتبة وعمود وكلّها ذات لون أرجواني داكن، ففكر في ذلك الزمن حين كان هذا الكابين الملكي وهذه الشرفة الملكية تسمع أصوات ضباط الملك الإسباني، وربما كانت أجساد بنات نائب الملك في ليما (العاصمة) قد اتكأت حيث كان يقف... حين كانت هذه الصور وغيرها تنتقل بسرعة عبر ذهنه، كما ينتقل النسيم عبر السكون، فقد أحسّ تدريجياً بقلق حلمي يتصاعد، شأن ما يشعر شخص وحيد في البراري بالقلق حين يغيب القمر.

اتكأ على الدرابزون المنحوت وراح ينظر مرة أخرى باتجاه الزورق؛ ولكنه وجد عينه تسقط على العشب الشريطي وهو يتجرجر على امتداد خط ماء السفينة، مستقيماً كحافة صندوق أخضر. وكانت مسطحات من أعشاب البحر، بأشكال بيضوية وهلالية عريضة، تطفو قريبة وبعيدة، بما بدا على أنه مجازات شكلية تعبر شرفات الموجات وتجتاح وكأنها تؤدي إلى الكهوف التي في الأسفل. وكان يتدلّى فوق كل هذا الدرابزون بذراعه الذي كان مطلياً على نحو جزئي بالقار ومزيناً جزئياً بالطحالب، فيبدو وكأنه الآثار المحترقة لمنزل صيفي في حديقة فخمة هجرت منذ زمن بعيد.

حاول أن يفكّ سحراً واحداً، ولكنه وجد نفسه مفتوناً من جديد. وعلى الرغم من أنه كان ما يزال في البحر، إلا أنه بدا له أنه موجود في بلد بعيد عن البحر فوق اليابسة؛ وأنه سجين في قلعة مهجورة، تُرك ليحدق إلى أرض فارغة، وإلى طرق مبهمة حيث لا تمرّ فيها أيّ عربة أو أيّ عابر سبيل.

ولكن هذا الأمور الساحرة فقدت فتنتها قليلاً حين وقعت عينه على السلاسل المتآكلة التي تدعم الصاري الرئيس. كانت ذات طراز عتيق، وكانت حلقاتها ضخمة وصدئة، حتى بدت

أنها أكثر ملاءمة لما تقوم به السفينة الآن بالمقارنة مع الغرض الذي بُنيت لأجله.

راح يظن الآن أن شيئاً ما كان يتحرك قرب السلاسل. فرك عينيه، ونظر بحدة. كانت أيكه من حبال الأشرعة والصواري تلتف من حول السلاسل؛ وهناك، كان بحار إسباني يحدق من خلف دعامة عظيمة، وكأنه هندي يحدق من خلف نبات الشوكران. كان في يده مدرس، وقد راح يقوم بإشارة ناقصة تفيد بأن على الكابتن ديLANO أن يتجه إلى الشرفة، ولكنه اختفى على الفور وكأنما أقلقه صوت خطى تتقدم نحوه على امتداد ظهر السفينة، وكان اختفاؤه أشبه بما يفعله سارق الصيد حين يختفي في أعماق دغل من نباتات القنب.

ما كان معنى ذلك؟ كان هناك شيء ما أراد ذلك الرجل أن يبلغ عنه، وهو مجهول بالنسبة إلى الجميع، حتى بالنسبة إلى قبطانه. هل كان السرّ لا يتضمن أي شيء غير مؤات لقبطانه؟ هل كانت ستأكد صحة تلك الهواجس التي خطرت للكابتن ديLANO؟ أم هل أخطأ، وهو في هذا المزاج الكئيب الآن، ففسر حركة عشوائية غير مقصودة من ذلك الرجل، وهو المشغول بعمله عند الدعامة، وكأنما يقوم بإصلاحها، على أنها إشارة إلى شيء خطير؟

وبحيرة، نظر مجدداً باتجاه زورقه، ولكن هذا قد اختفى مؤقتاً خلف امتداد صخري للجزيرة. انحنى إلى الأمام كأنما بتوق، وهو يراقب أول ظهور لمقدمة الزورق، والدرابزون ينهار بين يديه كما الفحم النباتي. ولولا أنه تمسك بحبل ممتد لكان قد هوى إلى البحر. لا بد أن صوت التحطم على ضعفه، وصوت سقوط الأجزاء المتآكلة من الدرابزون رغم أنه أجوف، قد سُمعا من قبل الآخرين. رفع نظره. كان واحد من لاقطي نتف الحبال العجائز يحدق إليه بفضول وقور، وقد انزلق من مجثمه إلى ذراع مرفاع خارجي؛ بينما كان البحار الإسباني رابضاً مرة أخرى إلى الأسفل من الزنجي العجوز، وغير مرئي من قبله، وهو يستكشف من الكوة وكأنه ثعلب يطل من مدخل جحره. ومن شيء ما أوحى فجأة من قبل سلوك ذلك الشخص، فإن الفكرة الجنونية اندفعت مجدداً إلى ذهن الكابتن ديLANO، بأن ذريعة مرض دون بينيتو، وانسحابه إلى الأسفل، كانتا مجرد تظاهر: إنه كان منهماكاً هناك في إنضاج خطته التي كان البحار - الذي حصل على فكرة غامضة عنها بطريقة ما - مصمماً على تحذير الشخص الغريب منها. وربما كان دافعه إلى ذلك الشعور بالامتنان من كلمة لطيفة قيلت لدى صعود الكابتن ديLANO إلى متن السفينة. هل كان دون بينيتو قد وصف بحارته بأنهم ذوو سلوك سيئ بينما كال المديح للزواج لأنه توقع مسبقاً تدخلاً محتملاً كهذا؛ على الرغم من أن البحارة بدوا طيِّعين بينما لم يبدُ على الزواج أنهم كذلك؟ كان أصحاب البشرة

البيضاء بطبيعتهم أيضاً أصحاب العرق الأكثر دهاء. فالرجل الذي يدبر مكيدة شريرة، أليس من المحتمل أن يمتدح ذلك الغباء الذي كان غافلاً عن نيته السيئة وأن يعيب ذلك الذكاء الذي لم يكن غافلاً عنه؟ ليس هذا بعيد الاحتمال على الأرجح. ولكن لو كان لدى أصحاب البشرة البيضاء أسرار سود تتعلق بدون بينيتو، فهل من الممكن أن يكون دون بينيتو متواطئاً مع الزوج؟ ولكن هؤلاء شديداً الغباء. وإضافة إلى ذلك، فمن سبق له أن سمع برجل أبيض مرتدّ إلى حدّ أن يتخلى عن أولئك الذين هم من صنفه بأن يتحالف مع الزوج؟ ألغت هذه الصعوبات صعوبات أسبق. ها هو الكابتن ديLANO وقد أحسّ بالضياح في هذه المتاهات، قد عاد إلى ظهر السفينة، وكان يتقدم بقلق على امتداده، حين لاحظ وجود وجه جديد؛ بحار مسنّ جالس وقد صالبا ساقيه قرب الباب الأرضي الرئيس. كانت بشرته قد تقلصت بالتجاعيد شأن حوصلة فارغة لطائر من البجع. وكان شعره أشيب، ووجهه وقوراً وهادئاً. كانت يده مليئتين بالحبال، وكان يصنع منها عقدة كبيرة. كان بعض الزوج يحيطون به وهم يغمسون له خيوط الحبال بطواعية، هنا وهناك، حسب ما تتطلبه ضرورات العملية.

عبر الكابتن ديLANO باتجاهه، ووقف صامتاً وهو يراقب العقدة. كان ذهنه يمرّ بحالة انتقال متجانس، فيعبر من تشابكاته إلى تشابكات خيوط القنب. من حيث التعقيد، لم يسبق له أن شاهد مثل هذه العقدة في سفينة أمريكية ولا في أيّ سفينة أخرى. لقد بدا الرجل العجوز ككاهن مصريّ يصنع عقداً «غوردية»<sup>4</sup> لمعبد آمون. بدت العقدة كأنها أنشودة مزدوجة لحبل السفينة وكعقدة تاجية ثلاثية وكعقدة مقلوبة وكعقدة مزدوجة وعقدة الرزم.

وأخيراً، وقد احتار في فهم معنى مثل هذه العقدة، خاطب الكابتن ديLANO ذلك الذي كان يصنع العقدة:

«ما الذي تعقده هناك أيها الرجل؟».

«العقدة»، هكذا كان الجواب المختصر دون أن يرفع الرجل نظره.

«هذا ما يبدو عليه الأمر. ما الغرض منها؟».

«حتى يقوم شخص آخر بفكّها»، هكذا همهم الرجل العجوز وهو يحرك أصابعه على نحو أشد من السابق، وقد أصبحت العقدة مكتملة الآن تقريباً.

وبينما كان الكابتن ديLANO واقفاً وهو يراقبه، رمى الرجل العجوز بالعقدة إليه على نحو مفاجئ، وهو يقول بلغة إنكليزية ركيكة - أول مرة يسمع بها الإنكليزية على متن هذه

السفينة - ما قد يكون معناه: «فكها، حلّها بسرعة». وقد قيل هذا بصوت خفيض، ولكن بتكثيف للسرعة حتى إن الكلمات الطويلة البطيئة بالإسبانية، والتي كانت قد سبقت ذلك وتلته، بدت وكأنها تغطي تقريباً على الكلمات الإنكليزية المختصرة.

وقف الكابتن ديLANO لبرهة صامتاً، والعقدة في يده، وعقدة في ذهنه؛ بينما كان الرجل العجوز الآن ودون أن يبدي اكتراثاً به، ينشغل بحبال أخرى. في هذه الأثناء، صدرت جلبة خفيفة من خلف الكابتن ديLANO، فالتفت ليرى الزنجي المقيد بالسلاسل، أتوفال، وهو واقف هناك بهدوء. وفي اللحظة التالية نهض البحار العجوز، وانتقل إلى الجزء الأمامي من السفينة، يتبعه زوجه التابعون له، ثم اختفى ضمن الزحام.

ها هو زنجي مسنّ لا يرتدي سوى خرقة تليق بطفل من الأطفال، وبرأس يختلط فيها الشيب مع السواد، وله هيئة محام، يقترب من الكابتن ديLANO. أبلغه بلغة إسبانية مقبولة وبغمزة عين تدل على الطيبة والمعرفة، بأن العجوز الذي عقد العقدة كان شخصاً ضعيف العقل، ولكنه غير مؤذ. وهو غالباً ما يقوم بحيله الغربية. ثم ختم الزنجي كلامه بأن طلب أن يسلمه الكابتن ديLANO العقدة لأنه لن يأبه بأن يشغل نفسه بها. وقد سلّمها إليه دون دراية منه. وبنوع من الإيماء التي تدل على المغادرة، استلمها الزنجي، والتفت بظهره، وراح يتفحصها كموظف جمارك يتفحص عقوداً مهربة. وسرعان ما رمى بالعقدة في البحر وهو يتلفظ بكلمة أفريقية تعني «تباً».

بدا هذا كله غريباً الآن، كما فكر الكابتن ديLANO، وقد اعتراه شعور مترع بالارتياح. ولكنه راح يحاول جاهداً أن يتخلص من شعوره بالدوخة، شأن شخص أصيب بدوار بحر بسيط، فبدأ يتجاهل أعراضه.

نظر مرة أخرى باتجاه زورقه. وقد سرّ حين رآه وقد أصبح تحت مرمى النظر، بعد أن غادر اللسان الصخري.

بدأ الإحساس الذي خبره للتوّ، وبعد أن حرره في البداية من قلقه، يزيل بفعالية غير متوقعة ذلك القلق. إن المشهد الأقرب لذلك الزورق المألوف جداً له... وهو يراه، ليس كما في السابق، نصف ممتزج بضباب رقيق، ولكن مع وضوح خطوطه العامة، بحيث اتضحت فرديته كما لفردية شخص ما من الأشخاص. ذلك الزورق، واسمه «روفرف»، والذي على الرغم من وجوده الآن في بحار غريبة، وهو الذي كان في أغلب الأحيان راسياً على الشاطئ عند منزل



الكابتن ديLANو، أو مسحوباً إلى عتبة المنزل للإصلاح؛ وهو يبدو جاثماً على نحو مألوف ككلب نيوفاونلاندي. لقد ذكره ذلك القارب ببيته فأثار ألف تداع للأفكار المفعمة بالثقة، والتي ملأته بالتباين مع الشكوك الأخيرة السابقة ليس بثقة مترعة بالمرح فحسب، بل بلوم للذات نصف فكه لافتقاره السابق لمثل هذه الثقة.

«ماذا، هل أنا أمازا ديLANو - (فتى الشاطئ) - كما كانوا يدعونني؟ أم مجرد شاب صغير...؟ أنا أمازا، ذلك الذي اعتاد - وهو يحمل حقيته المدرسية - أن يجذف على امتداد الشاطئ إلى المدرسة التي كانت في الأصل مجرد سفينة قديمة... أنا، فتى الشاطئ الصغير الذي اعتاد أن يذهب لجمع ثمار الزعرور مع ابن العم (نات) والبقية من الفتية... أنا من يخشى أن يتم اغتياله هنا في آخر حد من حدود الأرض على متن سفينة قراصنة مسكونة بالأشباح على يد إسباني رهيب؟ التفكير في هذا الأمر هراء في هراء! من ذا الذي سيغتل أمازو ديLANو؟ ضميره نظيف. هناك شخص ما في الأعلى. خسيت يا فتى الشاطئ! أنت مجرد طفل بالفعل. طفل الطفولة الثانية أيها العجوز! أخشى أن تكون قد بدأت تخرف ويسيل لعابك!».

بقلب خال من الهموم وبجسد نشيط سار نحو مؤخر السفينة، وهناك قابله خادم دون بينيتو الذي أبلغه بتعبير سار وعلى نحو يلائم مشاعره الحالية، بأن سيده قد تعافى من آثار نوبة السعال، وقد أمره بأن يقدم تمنياته الطيبة لضيفه المحترم، «دون أمازا»، وأن يقول إنه (دون بينيتو) سرعان ما سوف ينال سعادة الانضمام ثانية إليه.

إليك ما يجري، هل تلاحظ ذلك؟ هذا ما فكر فيه مجدداً الكابتن ديLANو وهو يمشي على السطح المرتفع الذي عند مؤخر السفينة. لكم كنت كالحمار! هذا الجنتلمان اللطيف الذي يرسل لي تمنياته الطيبة، كان قبل عشر دقائق فحسب، ويده مصباح مضاء بشمعة، يدير حجر صقل قديم في مخزن السفينة ويشحذ به بلطة يقتلني بها، كما كنت أظن. حسناً، حسناً، هذه الفترات الطويلة من الخمود في الريح لها تأثير مروع على الذهن. غالباً ما سمعت ذلك، على الرغم من أنني لم أصدقه من قبل. هاهاه! نظر باتجاه الزورق؛ ها هو روفر! يا له من كلب جيد! وفي فمه عظمة بيضاء. وهي عظمة كبيرة جداً على ما يبدو لي... ماذا؟ أجل، ها هي تلك الموجة تدفعه بعيداً الآن. إنه تجعله يذهب بالاتجاه المعاكس مؤقتاً. علي التحلي بالصبر.

كان الوقت هو الظهر الآن، ولكن من اللون الرمادي الذي بدا يكسو كل شيء، بدا أن الغسق قريب.

كان خمود الريح قد استقر الآن. إلى البعيد، وعلى مسافة من تأثير اليابسة، وكان المحيط الرصاصي يبدو ساكناً ومحملاً، فاقداً للروح وميتاً. ولكن التيار من جهة البر، حيث كانت السفينة راسية، قد بدأ يتعاضم، وبعدها بصمت باتجاه المياه الساكنة.

ومع ذلك، فإن الكابتن ديلاانو، ومن معرفته بتلك الأصقاع، فإنه أمل في أن يهبّ النسيم وأن ينشط بعد ذلك، وسيحدث ذلك خلال أيّ دقيقة؛ وعلى الرغم من الأوضاع الحالية، فإنه راح يأمل بمرح بأن سان دومينيك ستمكن من الرسو بأمان قبل حلول الليل. كانت المسافة التي أجبرت على قطعها ضئيلة، وإذا ما هبّت ريح طيبة فإن إبحاراً لعشر دقائق سيستعيد ما قطعتة في ستين دقيقة والتيار يدفعها. في هذه الأثناء، وبينما راح يراقب «روفر» وهو يناضل ضد التيار، شاهد بالتالي دون بينيتو يقرب منه، فاستمر في السير فوق السطح المرتفع الذي عند مؤخر السفينة.

بدأ يشعر تدريجياً بالغيظ بسبب تأخر زورقه في الوصول. وسرعان ما اختلط هذا بالقلق، وأخيراً – ها هي عينه تقع باستمرار، كما لو من قمرة مسرح نحو الخشبة، على الحشد الغريب أمامه وإلى الأسفل منه – وبدأ يميز بين الحين والآخر وجه البحار الإسباني – الذي تحول الآن إلى تعبير من اللامبالاة – والذي بدا له وكأنه يشير إليه حين كان عند سلاسل الصاري... فانتابه مجدداً شيء ما من ذعره السابق.

فكّر – بجدّ كافٍ – آه، هذه أشبه بالقشعريرة: لأنها انقضت، ولا شيء يمنع عودتها. ورغم خجله من هذه الانتكاسة، فإنه لم يستطع أن يتخلص منها تماماً. وهكذا، وبينما راح يستخدم صبره إلى أقصى حدّ، فقد توصل دون إدراك منه إلى حلّ وسط. أجل، هذه سفينة عجيبة؛ حكاية عجيبة؛ وأشخاص عجيبون على متنها. ولكن... لا شيء آخر.

وحتى يبقي ذهنه بعيداً عن الأفكار الشريرة ريثما يصل زورقه، حاول أن يشغل نفسه بالتفكير، بأسلوب تأملي، بالتصرفات الغريبة للقبطان وطاقمه. وقد برز من بين هذه التصرفات أربعة أمور مثيرة للفضول:

أولاً: مسألة الشاب الإسباني الذي هوجم بسكين من قبل العبد الفتى؛ وهذا أمر طرقت له عين دون بينيتو. ثانياً: الاستبداد في معاملة دون بينيتو لأتوفال، الزنجي؛ وذلك أشبه بأن ترى طفلاً يقود ثوراً من ثيران نهر النيل من الحلقة المغروزة في أنفه. ثالثاً: كيف داس زنجيان البحار

بالأقدام؛ وهذه وقاحة مرّت دون حتى مجرد تأنيب. رابعاً: خضوع جميع المرؤوسين في السفينة لسيدهم على نحو ذليل، وخاصة الزوج؛ وكأنما كانوا يخشون من أنهم كلما قلّ ارتكابهم لأعمال تدل على الإهمال كانوا يحرصون على أن يبقى استياؤه الاستبدادي في وضع أدنى.

حين حاول أن يربط هذه الأمور ببعضها، وجدها متناقضة. ولكن ماذا بعد؟ هكذا فكّر الكابتن ديلاانو، وهو يرنو إلى زورقه الآخذ بالاقتراب... ماذا بعد؟ عجباً، إن دون بينيتو قائد نزويّ جداً. ولكنه ليس أول قائد من هذا النوع سبق لي أن رأيت. ولكن من الصحيح أنه قد تجاوز غيره إلى حدّ كبير في هذا المضمار. ولكن كشعب - هكذا تابع تأملاته - فإن هؤلاء الإسبان جميعاً من النوع الشاذ والغريب. إن كلمة «إسباني» بحدّ ذاتها تتميز برنين عجيب وتأمري «غاي - فوكسي»<sup>5</sup>. ومع ذلك، أستطيع أن أقول إن الإسبان أناس طيبون شأن أولئك الذين يعيشون في دكسبري من ولاية ماساشوستس. آه طيبون! «أخيراً وصل الزورق المسمى روفر».

لمس الزورق جانب السفينة بشحنته المرحب بها، فراح لاقطو الحبال بإيماءات وقورة، يحاولون كبح الزوج الذين ما إن شاهدوا براميل الماء الخشبية الثلاثة في قعره، وكومة من اليقطين الذابل في مقدمه، حتى احتشدوا دون انتظام على جانب السفينة ليطلوا على المشهد.

ظهر الآن دون بينيتو مع خادمه، وقد عجل في قدومه سماعه للضحج. وقد طلب منه الكابتن ديلاانو الإذن بتوزيع الماء، حتى يتاح ذلك للجميع، وحتى لا يؤذي أحد نفسه بشرب الكثير منه. ولكن على الرغم من كون هذا الطلب معقولاً وكراماً، إلا أنه استقبل بما بدا على أنه نفاذ صبر، وكأنما كان دون بينيتو واعياً بأنه يفتقر إلى الحيوية كقائد، فاعتبر أيّ تدخل في هذا الأمر على أنه إهانة، وذلك بسبب الحرص الناجم عن ضعفه. هذا ما استنتجه الكابتن ديلاانو على الأقل.

خلال برهة أخرى، كانت براميل الماء قد رفعت إلى ظهر السفينة، وحدث خلال ذلك أن اصطدم بعض الزوج دون قصد بالكابتن ديلاانو، حيث كان يقف عند الممر. لذلك، ودون اكتراث بدون بينيتو، ومستسلماً لدافع اللحظة، فقد راح يأمر الزوج بسلطة تتسم بالمودة أن يتراجعوا. وحتى يتمّ تنفيذ أوامره، فقد راح يومئ بحركات نصف مرحة ونصف عدائية. وعلى الفور، توقف الزوج عن الحركة، وبقوا في أماكنهم، وقد ثبت كل زنجي أو زنجية في وضعيته أو وضعيتها، حيث وجده أو وجدها الأمر الصادر عنه - واستمرت الحال على هذا

النحو لبضع ثوانٍ - بينما راح مقطع لفظي مجهول يسري من رجل إلى آخر- كما قد تسري البرقية بين أعمدة التلغراف - وذلك بين لاقطي نتف الحبال. وبينما كان انتباه الزائر قد تركز على هذا المشهد، فإن شاحذي البلطات نهضوا فجأة نصف نهوض، وصدرت صرخة سريعة من دون بينيتو.

وإذ ظنّ الكابتن ديLANO أنه على وشك أن يُغتال بهذه الإشارة الصادرة عن الإسباني، فقد كاد يقفز إلى الزورق. ولكنه توقف حين بدأ لاقطو نتف الحبال، وقد راحوا يختلطون بالحشد، يصرخون صرخات حادة، وأجبروا كل شخص أبيض البشرة وكل زنجي على التراجع، في اللحظة نفسها، وذلك بإيماءات ودودة ومألوفة، تكاد تكون فكاهية، ويأمرونه جوهرياً بالألا يتصرف كشخص أحمق. في هذه الأثناء عاد شاحذو البلطات إلى الجلوس في أماكنهم، بهدوء، شأن مجموعة من الخياطين. وعلى الفور، وكأنما لم يحدث أي شيء، استؤنف العمل على رفع البراميل بينما كان البيض البشرة والزنوج يغنون عند الأشرطة.

رنا الكابتن ديLANO إلى دون بينيتو. وحين رأى جسده الضئيل يتراجع عن ذراعي خادمه، وكان هذا العليل المهتاج قد لجأ إليهما، لم يستطع سوى أن يتعجب من الذعر الذي أدهشه، إذ افترض فجأة أن مثل هذا القائد سيتسبب في اغتياله، وهو الذي كان على وشك أن يفقد كل سيطرة على نفسه في هذه المناسبة الشرعية العادية جداً، حسب ما بدا له الآن.

وبما أن البراميل أضحت الآن على متن السفينة، فقد سلم واحد من مساعدي المضيف إلى الكابتن ديLANO عدداً من الأباريق والأكواب، وذلك باسم قبطانه، مناشداً إياه أن يقوم بما كان قد وعد به: أي أن يوزع الماء مع التقدير. قبل المهمة بحياد جمهوري يسعى دائماً إلى مستوى واحد، فيخدم الأكبر سنّاً من أصحاب البشرة البيضاء بالدرجة نفسها التي يخدم بها الأصغر سنّاً بين الزنوج؛ ولكن باستثناء دون بينيتو المسكين الذي كانت حالته الصحية وليس رتبته، تتطلب حصة أكبر. وقد قدم له أولاً الكابتن ديLANO إبريقاً جيداً من ذلك السائل؛ ولكن على الرغم من تعطش الإسباني له، إلا أنه لم يرضَ أن يرتشف أي نقطة إلا بعد عدة انحناءات وتحيات. وكان في هذا تبادل لأمارات المجاملة التي رحب بها الأفارقة المحبين للمشاهد بالتصفيق.

تمّ الاحتفاظ بقدرتين اثنتين أقل ذبولاً من الأخريات لمائدة قمرية القيادة، ثم فرمت البقية في الحال من أجل توزيعها عموماً. ولكن كان من شأن الكابتن ديLANO أن يعطي الخبز الطري والسكر وعصير التفاح المحفوظ في زجاجات إلى أصحاب البشرة البيضاء، وخاصة دون

بينيتو، إلا أن هذا اعترض على ذلك. وقد بثت هذه النزاهة الكثير من السرور في قلب الأمريكي. وهكذا منحت اللقم إلى الجميع على نحو متساوٍ فنال أصحاب البشرة البيضاء ما ناله للزواج؛ باستثناء بابو الذي أصرّ على أن يقدم حصته إلى سيده.

وهنا يمكن أن نلاحظ أن الأمريكي، في الزيارة الأولى للزورق، لم يسمح لرجاله بأن يصعدوا إلى متن السفينة، وقد فعل هذا الأمر نفسه الآن، فهو لم يكن راغباً في أن يزيد من الفوضى السائدة على ظهرها.

طلب الكابتن ديLANO، الذي تأثر بالمرح السائد، وغفل في هذه الفترة عن أيّ أفكار عدا تلك المتعلقة بحب الخير، والذي كان يعتمد من المؤشرات الأخيرة على أنه خلال ساعة أو اثنتين على الأكثر فإن نسيماً سيدفع بالقارب عائداً إلى سفينة صيد الفقمات، مع أوامر لجميع البحارة الممكن الاستغناء عنهم، كي ينطلقوا حاملين البراميل إلى مورد الماء وتعبئتها. كما أمر على نحو مشابه بنقل أمر إلى معاونه الرئيس، بأنه لو حدث على نحو معاكس للتوقعات الحالية، أن السفينة لم تستطيع الوصول إلى المرسى مع الغروب، فليس عليه أن يقلق؛ فإنه من المتوقع أن يكون القمر بديلاً في تلك الليلة، وهو (أي الكابتن ديLANO) سيبقى على متن السفينة مستعداً للعب دور مدير الدفة، ما إن تأتي الرياح، سواء حدث ذلك باكراً أم في وقت متأخر.

وحين وقف القبطانان معاً، وهما يراقبان الزورق وهو يغادر- فإن الخادم، وكما جرى، قد لاحظ وجود بقعة على الكم المخملي لسيده، وراح ينهمك بصمت في إزالتها بالفرك - فعبّر الأمريكي عن أسفه لأن سان دومينيك ليس لها زوارق. ولكن لها زورق واحد على أيّ حال هو ذلك الزورق الطويل العتيق الذي كان قد وضع مقلوباً أشبه بهيكل عظمي لجمل في الصحراء، وكان لونه قد ابيضّ حتى يكاد يشبه لون ذلك الهيكل، وها هو وقد وضع مقلوباً في منتصف ظهر السفينة وأحد جانبيه مرفوعاً، مما أتاح لمجموعات من الزواج أن يتخذوا منه نوعاً من الوكر تحت الأرضي، وخاصة الإناث والأطفال الصغار منهم الذين كانوا يقبعون على أبسط عتيقة هناك في الأسفل أو يجثمون في الأعلى في القبة المعتمة، على المقاعد المرفوعة. هكذا اكتشف وجودهم ضمن مسافة إلى الداخل، شأن حلقة متألّفة من الخفافيش التي وجدت ملجأ لها في كهف آمن، تأتي إليه بين الحين والآخر، بشكل أسراب سود من الصبية والبنات العراة، في سن الثالثة أو الرابعة، وهم يدخلون أو يخرجون من فم الوكر.

قال الكابتن ديLANO: «لو كان لديك ثلاثة أو أربعة زوارق يا دون بينيتو، أعتقد أن زواجك

هؤلاء كان من شأنهم تقديم المساعدة بدفعهم للمجازيف. هل أبحرت من الميناء دون زوارق يا دون بينيتو؟».

«لقد حطمتها العواصف يا سينيور».

«كان هذا أمراً رديئاً. لقد خسرت الكثير من الرجال أيضاً في ذلك الحين. كانت تلك عواصف عاتية يا دون بينيتو».

قال الإسباني مشفقاً: «شيء لا يوصف».

استأنف رفيقه الكلام باهتمام متزايد: «قل لي يا دون بينيتو، قل لي، هل كانت تلك العواصف بعد تجاوزك لـ (رأس القرن) مباشرة؟».

«رأس القرن... من ذكر رأس القرن؟».

«أنت قلت ذلك، وأنت تصف لي ما حدث خلال سفرتك»، هكذا أجاب الكابتن ديLANو بدهشة مماثلة تقريباً لتراجع الإسباني عن كلامه السابق حتى ولو بدا وكأنه يتحسر على كل ما جرى. «أنت قلت لي ذلك يا دون بينيتو، لقد تحدثت عن رأس القرن». هذا ما كرره مؤكداً على كلامه.

التفت الإسباني بوضعية فيها انحناء وكأنه يتوقف لبرهة، أو كمن يريد أن يقوم بتبديل للعناصر، كأن يحيل الهواء إلى ماء.

في هذه اللحظة فإن رسولاً صغير السن أبيض البشرة، وصل مسرعاً، وهو يمارس الأداء المعتاد لوظيفته، حاملاً رسالة وذلك من المسؤول عن الساعة في قمرة القيادة إلى المتن العلوي للسفينة تفيد بأن نصف الساعة الأخير قد كاد ينقضي، وذلك حتى يتم قرع جرس السفينة الكبير.

قال الخادم وهو يتوقف عن تنظيف كم السترة، ويخاطب الإسباني السابح في عالم آخر بنوع من التقدير الخجول للأمر كما ينبغي، كشخص مكلف بواجب ما، ولكن تنفيذه سيبرهن على أنه مضجر للشخص الذي فرضه، وقد كان القصد منه أن يكون لمنفعته: «قال لي سيدي إن عليّ أن أذكره على الفور، أني يكن ومهما كان يشغله، متى يحين موعد حلاقة لحيته. لقد وصل ميغيل ليعلم عن موعد ضرب الساعة بعد الثانية عشرة ظهراً. وقد حان موعد ذلك الآن. هل سيدخل سيدي إلى قمرته الخاصة؟».

أجاب الإسباني مجفلاً، وكأنه يستيقظ من الحلم إلى الواقع: «آه، أجل». ثم التفت إلى الكابتن ديلاانو، وقال إنه سيعود لينضم إليه بعد قليل.

قال الخادم: «لو كان سيدي ينوي أن يتابع التحدث إلى دون أمازا، فلماذا لا يدخل دون أمازا إلى القمرة ويجلس هناك، ويمكن لسيدي أن يتكلم ولدون أمازا أن يصغي، بينما يقوم بابو برغو الصابون والشحذ».

قال الكابتن ديلاانو وقد سرّ بهذه الخطة الأنيسة: «أجل، أجل يا دون بينيتو، ما لم تفضل ألا أذهب معك».

«فليكن ذلك يا سينيور».

حين اتجه ثلاثتهم إلى مؤخر السفينة، لم يستطع الأمريكي مغالبة التفكير في مثال آخر غريب على مزاج مضيفه، حيث إنه يحب أن تتم حلقة لحيته بتلك الدقة في التوقيت في منتصف النهار. ولكنه اعتبر أن الأكثر احتمالاً هو أن الإخلاص القلق للخادم له صلة بالمسألة وبالقدر نفسه بالمقاطعة التي جاءت في حينها وعملت على إخراج سيده من المزاج الذي كان مسيطراً عليه بجلاء.

كان المكان المسمى بالقمرة الخاصة قمرة على المتن شكلها مؤخر السفينة، وهي أشبه بسقيفة للقمرة الكبيرة أدناها. كان جزء منها في السابق هو مأوى للضباط، ولكن منذ وفاتهم فإن جميع الحواجز قد رميت في البحر، وتم تحويل المكان بأكمله إلى قاعة بحرية واسعة ومهواة. ولخلّوها من الأثاث الفاخر والفوضى الرائعة للملحقات المتنوعة، فهي أشبه بالقاعة الواسعة والفوضوية لنيل عازب غريب الأطوار يعيش في الريف ويعلق سترة الصيد الخاصة به وكيس التبغ على قرون الأيل، ويضع سنارة الصيد والملقط والعصا في الزاوية نفسها.

وقد تعزز هذا التشابه، إن لم يكن موحى به في الأصل، بلمحات من البحر المحيط بهذه القمرة، بما أن المحيطات والأرياف تبدو كأولاد عم.

كانت أرضية القمرة مغطاة بالأبسطة. في الأعلى كانت أربع أو خمس بنادق قد حشرت في ثقب أفقية على امتداد الروافد. إلى أحد الجوانب كانت منضدة عتيقة بأرجل على شكل مخالب مربوطة إلى ظهر السفينة. كان عليها نسخة مهترئة من الكتاب المقدس، وفوقه صليب صغير علق على الجدار. تحت المنضدة كان سيف مقوس أو سيفان مقوسان كليان مع الرمح البحري بين أشياء أخرى. وهناك حبال أشرعة كثيبة وعتيقة أشبه بكومة من أحزمة

راهب فقير. كما كانت هناك أريكتان طويلتان بصلوع طويلة مصنوعتان من قصب مالقا، وقد اسودتا من القدم، ولا توحيان بالراحة للناظر لأنهما أشبه بمخلعتين من مخالغ محققي محاكم التفتيش؛ وكذلك كنبه كبيرة مشوهة بدت كجهاز تعذيب خيالي إذا زوّدت بمسند حلاق بسيط في ظهرها يعمل بواسطة برغي. كما كان فيها صندوق للأعلام، وكان مفتوحاً يعرض مختلف الرايات الملونة، بعضها ملفوف وبعضها الآخر نصف ملفوف، وأخرى مكومة دون نظام. مقابل ذلك كانت مغسلة ثقيلة من خشب الماهوغانى مصنوعة كلّها من كتلة واحدة، مع قاعدة أشبه بجرن المعمودية، وفوقها رفّ له حاجز يحتوي على أمشاط وفراشي وأدوات الزينة الأخرى، كانت أرجوحة شبكية ممزقة خضراء اللون تتأرجح إلى القرب من ذلك كلّه؛ وكانت الشراشف غير مرتبة والوسادة مجعّدة كأنها جيبن، وكأن من كان ينام هناك هو شخص مريض كثير الرؤى المتناوبة من الأفكار الحزينة والكوابيس.

كان الطرف البعيد من هذه القمرة التي تعلو فوق مؤخر السفينة مزوداً بثلاث فتحات، نوافذ أو فتحات حسب من يطل منها، رجالاً كانوا أم مدافع، على نحو أنيس أو غير أنيس. في الوقت الحالي لم يكن يطل منها لا الرجال ولا المدافع، على الرغم من أن مسامير ضخمة ذات عروة وأشياء أخرى من الحديد الصدئ مثبتة في الخشب توحى بأنها كانت تستخدم من أجل مدافع من عيار أربعة وعشرين باوند.

قال الكابتن ديلانو وهو يرنو إلى الأرجوحة الشبكية خلال دخوله: «أتنام هنا يا دون بينيتو؟».

«أجل يا سينيور، منذ أن أصبح الطقس لطيفاً».

أضاف الكابتن ديلانو وهو يتطلع من حوله: «يبدو هذا المكان كمهجع وغرفة جلوس ومكان لتناول الطعام ومختلى في آنٍ معاً يا دون بينيتو».

«أجل يا سينيور، لم تكن الأمور مؤاتية للكثير من النظام في استعداداتي».

وهنا فإن الخادم، وقد وضع فوطه على ذراعه، قام بحركة وكأنه ينتظر مسرة سيده. أوماً دون بينيتو بما يدل على استعداده، فجلس في الكنبه المالقيه الطراز، وقام الخادم بجرّ واحدة من الأرائك من أجل الضيف، ثم بدأ بعمله بأن دفع قبة قميص سيده إلى الخلف وأرخی له ربطه عنقه.

كان هناك شيء ما في ذلك الزنجي يجعله، بأسلوب استثنائي، ملائماً لمهنته. معظم الزوج



ملائمون على نحو طبيعي لمهنة الوصيف أو المزيّن؛ إنهم يتجانسون مع المشط والفرشاة كما مع الصنوج، ويزهون بها برضا يكاد يكون متساوياً. كما أن هناك لباقة سلسلة أخرى تتعلق بهذه المهنة، هي الرشاقة الرائعة الهادئة والانسائية التي تسرّ الناظر إليها. وإضافة إلى هذا كله، الموهبة العظيمة المتعلقة بحسّ الفكاهة لديهم. ولا نعني هنا مجرد الابتسام أو الضحك. فهذان غير ملائمين للموضوع. إنما نعني نوعاً معيناً من المرح المتناغم في كل نظرة وإيماءة، وكأن الرب قد ضبط الزنجي بأكمله - وكأنه آلة موسيقية - على أوتار مشبعة بالسرور.

وحين يُضاف إلى هذا سهولة الانقياد النابعة من رضا يخلو من الطموح الخاص بذهن محدود وتلك القابلية للمودة العمياء التي تكون أحياناً متأصلة لدى المرؤوسين دون جدال، يمكن للمرء أن يدرك فوراً السبب في أن «جونسون»<sup>6</sup> و«بايرون»<sup>7</sup> - وهما ذاك الشخصان المصابان بوسواس المرض - قد اختاروا طوعاً كخادمين لهما - شأن بينيتو سيرينو المصاب بوسواس المرض - الزنجيين «باربر» و«فلتشر»، باستغناء عن الجنس الأبيض كلّه. ولو كان في الزنجي ذاك الأمر الذي يعفيه من النكد الكئيب الخاص بالذهن الساخر، فكيف سيبدو في كل مظاهره الفاتنة أمام الدهن المطبوع على حبّ الخير؟ كان طبع الكابتن ديLANO - حين لا يشعر بالقلق من المظاهر الخارجية للأمر - ليس كريماً فحسب، وإنما هو مطبوع على ذلك مع حسّ بالظرف أيضاً. حين يكون في منزله، غالباً ما يجد متعة كبيرة في الجلوس عند باب الدار وهو يراقب رجلاً حراً من الملونين يعمل أو يلعب. وحين يكون مبحراً ولديه بحار زنجي على متن السفينة، فهو يكثر من التحادث والعبث معه. في الواقع، فإن الكابتن ديLANO، شأن معظم الرجال ذوي القلب الطيب المرح، كان يميل إلى الزنوج، ليس بدافع من حبّ الخير للبشر، ولكن بدافع من اللطف، كما يحدث أن يشعر أشخاص آخرون تجاه كلاب نيوفاوندلندية.

حتى الآن، فإن الظروف التي وجدها سائدة على السفينة سان دومينيك قد جعلته يكبح هذا الميل. ولكن ضمن هذه القمرة - وبعد أن تحرر من قلقه السابق، ولأسباب متنوعة، فقد شعر بضعفه السابق تجاه الزنوج يعود إليه، وأصبح أكثر نزوعاً إلى الشعور بالأنس من أيّ فترة سابقة، وذلك وهو يرى الخادم الملون البشرة وقد وضع الفوطة على ذراعه، شديد اللطف تجاه سيده، في مهمة مألوفة جداً هي الحلاقة.

بين أمور أخرى، فقد راح يسلي نفسه بمثل غريب هو حبّ الأفارقة للألوان الصاخبة والمظاهر البراقة، وفي قيام الزنجي بسحب قطعة كبيرة من قماش الرايات ذات ألوان متعددة

من صندوق الرايات ودسّها بسخاء تحت ذقن سيده كمثرر.

أسلوب الحلاقة لدى الإسبان يختلف قليلاً عما لدى الأمم الأخرى. إنهم يستخدمون طستاً يسمى على نحو خاص بـ «طست الحلاق»، وهو مجوف من أحد طرفيه بحيث يحتوي الذقن بدقة، ثم يجري رغو الصابون على الذقن ليس بفرشاة ولكن بصابونة مغموسة بماء الطست ويتمّ فركها على الوجه.

في هذه المرة استخدم الماء المالح لعدم وجود ما هو أفضل منه، والأجزاء التي تمّ رغو الصابون عليها كانت أعلى الشفة العليا فحسب، وما تحت الحنجرة، أما الباقي فكان لحية معتنى بها.

وبما أن الإجراءات التمهيدية كانت جديدة على الكابتن ديLANO، فقد جلس وراح يتفرج بفضول عليها، وهكذا لم يجر أيّ حوار، كما لم يبدُ على دون بينيتو أنه كان مستعداً لتجديد أيّ حوار.

بعد أن جهز الزنجي الطست، راح يبحث بين الأمواس وكأنه يطلب أكثرها مضاء، وبعد أن وجدها، فقد زادها حدة بأن شحذها على الجلد المكتنز والناعم والزيتي لكفّه المفتوحة. ثم قام بعلامة تدل على أنه سيباشر بعمله، ولكنه توقف في منتصف المحاولة لبرهة، وإحدى يديه ترفع الموسيقى، والأخرى تفرك رغو الصابون بحرفية على عنق الإسباني النحيلة. ارتجف دون بينيتو بعصبية متأثراً لدى مشاهدة الفولاذ اللامع قريباً من وجهه؛ كان شحوبه المعتاد قد ازداد بوجود رغو الصابون، وكان لون هذا قد تعزز باللون الأسود المتباين لجسد الزنجي. عموماً، كان المشهد غريباً نوعاً ما، على الأقل بالنسبة إلى الكابتن ديLANO، فقد رأى في مشهد هذين الشخصين في تلك الوضعية، شيئاً جعله لا يستطيع مغالبة الوهم بأنه يرى جلاداً في الزنجي وشخصاً محكوماً بالإعدام في الرجل الأبيض البشرة. ولكن كانت تلك واحدة من تلك الخدع الغريبة التي تظهر وتختفي خلال برهة، والتي لا يستطيع حتى أكثر العقول انضباطاً ألا يتعرض لها.

في هذه الأثناء فإن الاهتياج الذي شعر به الإسباني قد حرك لفات قماش الرايات الذي كان من حوله مما جعل واحدة من اللفات تسدل كستارة من ذراع الكنبه إلى الأرضية، فكشفت عن صورة قلعة مغلقة ضمن حقل أحمر قان بلون الدم مع أسد بلون أبيض، وذلك ضمن وفرة من شعارات النبالة السود والزررق والصفير.

صاح الكابتن ديLANو: «عجباً يا دون بينيتو، القلعة والأسد، هذا علم إسبانيا الذي تستخدمه هنا. إنه لأمر حسن أنني أنا من يشاهد هذا فحسب، وليس الملك». هذا ما أضافه مع ابتسامه. ثم التفت إلى الزنجي وقال: «ولكن، كلها واحدة، كل الألوان توحى بالمرح». وقد قال ذلك بلهجة مزحة جعلت الزنجي يستشعر وخزاً خفيفاً إلى حد ما.

قال وهو يعيد الراية إلى وضعها الأصلي ويضغط على رأس سيده بلطف ليعود إلى مسند الكرسي: «والآن يا سيدي، هيا يا سيدي»؛ والتمع الفولاذ قرب الحنجرة.

ومن جديد ارتجف دون بينيتو.

«ليس عليك أن ترتعش على هذا النحو يا سيدي. ألا ترى يا دون أمازا أن سيدي يرتعش دائماً عندما أحلق له. ومع ذلك يعرف سيدي أنه لم يسبق لي أن جعلته ينزف دماً؛ ولكن لو استمر بالارتعاش هكذا فقد أجعله ينزف ذات مرة. هياً يا سيدي. هياً يا سيدي. يا دون أمازا تابع حديثك حول العاصفة وكل تلك الأمور. يمكن لسيدي أن يسمعك، ويمكن لسيدي أن يجيب بين الحين والآخر».

قال الكابتن ديLANو: «أوه، أجل. تلك العواصف. ولكن كلما فكرت في رحلتك تلك يا دون بينيتو، تساءلت، ليس عن تلك العواصف على الرغم من فظاعتها، بل عن تلك الفترة الزمنية الكارثية التي تلتها. فها أنتم - حسب ما قلته لي، قد أمضيتم شهرين ونيفاً حتى تمكنتم من الوصول من رأس القرن إلى سانتا ماريا، وهي مسافة قطعها أنا شخصياً - مع وجود ريح طيبة - خلال أيام قليلة. حقاً لقد واجهتم سكوناً في الريح وهو قد امتد لفترات طويلة، ولكن أن يمتد السكون لشهرين، فهذا أمر غير معتاد في أسوأ الحالات. عجباً، يا دون بينيتو، لو أن أي جنتلمان آخر روى لي مثل هذه الحكاية، لكنت ميالاً إلى ألا أصدقه بعض الشيء».

هنا، اعترت الإسباني حركة لاإرادية مشابهة لتلك التي اعترته سابقاً وهم على ظهر السفينة. وسواء كان ذلك هو الإجفال الذي أصابه أو اهتزاز مفاجئ لبدن السفينة أو رجفة مؤقتة ليد الخادم، مهما كان السبب في ذلك، فإن الموسيقى جعلت الدم ينزف حتى ظهرت بقع منه على رغوة الصابون تحت الحنجرة: وعلى الفور أبعاد الحلاق الزنجي الموسيقى، وبقي في وضعية الحلاق المحترف، ظهره إلى الكابتن ديLANو، ووجهه إلى دون بينيتو، وهو يرفع الموسيقى التي يقطر منها الدم، ويقول بنوع من ندم ممزوج بالفكاهة: «أترى يا سيدي - لقد ارتعشت كثيراً - وها هو أول دم يريقه بابو».

ما كان يمكن لأيّ سيف جرّد في وجه الملك دجيمز الأول، ملك إنكلترا، ولا لأيّ عملية اغتيال في حضور ذلك الملك الرعديد، أن يتسببا في كل ذلك الرعب الذي بدا على دون بينيتو في هذه اللحظة.

يا للشخص المسكين، هكذا فكّر الكابتن ديLANO، إنه متوتر الأعصاب إلى حدّ أنه لا يستطيع تحمل مشهد الدم على موسى الحلاقة؛ وهذا الشخص المريض العصبي، هل يُصدّق أنني كنت قد تخيلت أنه كان ينوي سفك دمي كلّهُ، وهو الذي لا يستطيع تحمل رؤية قطرة صغيرة واحدة من دمه هو؟ يا أمازا ديLANO، لم تكن على طبيعتك هذا اليوم. لا تحك لأحد عن هذا حين تعود إلى بيتك يا أمازا الأحمق. حسناً، حسناً، يبدو كقاتل، أليس كذلك؟ يبدو وكأنه هو الذي سيقتل. حسناً، حسناً، ستكون تجربة هذا اليوم درساً جيداً.

في هذه الأثناء، وبينما كانت هذه الأفكار تجري في ذهن هذا الملاح الشريف، كان الخادم قد رفع الفوطة عن ذراعه، وقال لدون بينيتو: «ولكن أجب على دون أمازا يا سيدي، بينما أمسح هذه المادة الكريهة عن الموسى، ثم أشحذها مجدداً».

وبينما كان يقول هذه الكلمات، كان وجهه قد التفت نصف التفاتة، بحيث يكون مرئياً للإسباني وللأمريكي على حدّ سواء، وقد بدا التعبير على وجهه وكأنه راغب في أن ينخرط سيده في الحوار، وذلك ليلفت انتباهه بعيداً عن الحادثة المزعجة التي جرت للتوّ. استأنف دون بينيتو الحديث، وهو يروي للكابتن ديLANO، أن ليس فترات سكون الريح هي التي كانت طويلة إلى حدّ غير عادي، ولكن السفينة حوصرت بتيارات عنيدة وأمور أخرى كانت عبارة عن تكرار لما قيل سابقاً، وذلك ليفسر كيف أن الرحلة من رأس القرن إلى سانتا ماريا استغرقت كل ذلك الزمن الطويل إلى ذلك الحدّ المفرط. بين الحين والآخر، كان يخلط بكلماته مديحاً عرضياً للزئوج الأقل كفاءة، وذلك بسبب سلوكهم الطيب عموماً. ولم تكن هذه التفاصيل تُعطى على التعاقب، فقد كان الخادم، في أوقات ملائمة، يستخدم موساه. وهكذا، بين مراحل الحلاقة، كانت الحكاية والمديح يستمران بصوت أجشّ إلى حدّ غير عادي.

حسب مخيلة الكابتن ديLANO، كان هناك بين الحين والآخر شيء ما شديد الإيحاء بالخداع في أسلوب الإسباني، مع خداع متبادل جليّ في التعليق الغامض للخادم عن الصمت، حتى إن فكرة ومضت عبر ذهنه بأنه من المحتمل أن يكون السيد والخادم، لسبب مجهول، يؤديان دوراً تمثيلاً ما، بالكلام والفعل، بل حتى إن ارتعاش أعضاء دون بينيتو كان مجرد تهريج

يجري أمامه. لم يكن الشك في التواطؤ يفتقر إلى دليل واضح، وذلك من حقيقة هذه المشاورات التي تجري همساً والتي سبق ذكرها. ولكن يا ترى ما الذي يمكن أن يكون الهدف من تمثيل مسرحية الحلاق هذه؟ أخيراً، وفيما يخص هذه الفكرة النابعة من نزوة والتي أوحى بها المظهر المسرحي لدون بينيتو ضمن تلك الرايات التهريجية، صرف الكابتن ديLANO هذه الفكرة بسرعة من ذهنه.

مع انتهاء الحلاقة، أمسك الخادم بزجاجة صغيرة من الماء المعطر، وصبّ القليل منها على رأس سيده، ثم راح يفرکہها بكدّ جعل عضلات السيد تنقبض على نحو غريب بسبب شدة عملية الفك.

كانت عمليته التالية بمشط ومقصّ وفرشاة. فراح يدور من حول سيده وهو يملس خصلة شعر هنا ويقص شعرة شارب جامحة هناك، ويحسن خصلة على الصدغ بلمسات مرتجلة تثبت أنه مهني ماهر. بينما كان دون بينيتو، كأبيّ جنتلمان مستسلم بين يدي حلاق، يتحمل هذا كله ببسر، بالمقارنة مع تحمله للحلاقة بالموسى. وبالفعل فقد جلس بشحوب وتصلب شديدين الآن، حتى كأن الزنجي بدا الآن وكأنه نحات نوبيّ يضيفي اللمسات الأخيرة على رأس تمثال لرجل أبيض.

بعد انتهاء الأمر كلّه، وبعد إزالة علم إسبانيا ولفّه ورميه في الصندوق، كانت أنفاس الزنجي الدافئة تنفخ أيّ شعرة ضلّت طريقها فهبطت على عنق السيد. أعيد ترتيب القبة وربطة العنق ونفضت نسالة من على طية صدر السترة. تمّ القيام بهذا كلّه. ثم تراجع الخادم قليلاً وتوقف بتعبير يدل على الرضا المكبوح عن الذات، وراح يعاين سيده لبرهة على أنه - خلال تزيينه على الأقل - مخلوق من صنع يديه الماهرتين.

أثنى الكابتن ديLANO بمرح على إنجازها، وهناً في الوقت نفسه دون بينيتو.

ولكن لا الماء المعطر ولا الغسل ولا الإخلاص أو الاستئناس أدخل السرور على قلب الإسباني. انسحب الكابتن ديLANO، وقد رآه يغرق في كآبة شديدة وهو ما يزال جالساً، وذلك لاعتقاده أن حضوره لم يكن مرغوباً فيه في تلك اللحظة، مدعياً أنه يريد أن يرى وجود أيّ دلائل على النسيم كما سبق له وتنبأ.

تقدم نحو الصاري الرئيس، ووقف هناك وهو يتأمل في المشهد، ولكن ليس دون بعض الهواجس غير المحددة، وذلك حين سمع ضجة قرب القمرّة الخاصة، فالتفت ليرى الزنجي

ويده على وجنته. تقدم الكابتن ديلانو ليتبين له أن الوجنة كانت تنزف. كان على وشك أن يسأل عن السبب، حين فسرت له مناجاة الزنجي الباكية ما جرى.

«آه، متى سيشفى سيدي من مرضه. القلب الشكس الذي يسببه المرض الشكس هو الذي جعله يعامل بابو على هذا النحو. لقد جرح بابو بالموسى، لأن بابو، دون قصد، تسبب بخدش صغير للسيد. وهذه هي المرة الأولى منذ أيام كثيرة. آه، آه، آه». هذا ما قاله وهو يضع يده على وجهه.

فكر الكابتن ديلانو: هل من الممكن أن دون بينيتو تصرف بذلك الأسلوب الكئيب معي حتى ينتقم من صديقه المسكين، فجعلني أنسحب؟ آه، هذه العبودية تجعل المرء يفعل على نحو بشع... يا للمسكين!

كاد أن يتكلم بتعاطف مع الزنجي، ولكنه عاد الآن ليدخل إلى القمرة بتردد خجول. في هذه الأثناء كان السيد والخادم يتقدمان. كان دون بينيتو يتكئ على خادمه وكأن شيئاً لم يكن قد جرى.

إنه لا شيء سوى شجار المحبين، هكذا فكر الكابتن ديلانو.

بادر دون بينيتو بالكلام، وسارا معاً. وما إن قطعاً مسافة قصيرة حتى اقترب منهما الوصيف، وهو خلاصي طويل القامة يبدو كأنه راجا هندي، في ملابس شرقية مع عمامة ذات طبقات تتألف من عدة مناديل من طراز مدينة مدراس وقد لفتت من حول رأسه، طبقة فوق طبقة... كان يؤدي التحية على الطريقة الشرقية ويعلن أن وجبة الغداء كانت جاهزة في القمرة.

في طريقهما إلى القمرة، تقدم الخلاصي القبطانين، والتفت وهو يتقدمهما وهو يبتسم وينحني باستمرار، ويرشدهما إلى المكان، بتعبير مترع بالأناقة كان تكملة للنقص الذي مثله بابو الحاسر الرأس، حتى لو كان غير مدرك لوضاعته، راح ينظر شزراً إلى الوصيف الرشيق. ولكن، وإلى حد ما، عزا الكابتن ديلانو هذه المراقبة المترعة بالحسد إلى ذلك الشعور المميز الذي يحمله الأفريقي الخالص النسب للخلاصي ذي النسب غير الصافي. أما فيما يخص الوصيف، فإن أسلوبه، وإن لم يكن معبراً عن الكثير من الوقار واحترام الذات، إلا أنه كان يدل على رغبة شديدة في إرضاء الغير، وهو أمر يستحق تقديراً مضاعفاً، كأن يكون المرء في آنٍ معاً مسيحياً ومن تشسترفيلد.

لاحظ الكابتن ديLANو باهتمام أنه حين كانت بشرة الخلاسي هجينة، إلا أن ملامح وجهه كانت أوروبية... وإلى حدّ كلاسيكي.

همس: «يا دون بينيتو، يسرّني أن أرى كبير الحجاب لديك هذا. إن منظره يدحض ملاحظة شنيعة تلفظ بها ذات مرة صاحب مزرعة من باربادوس، فقد قال إنه حين يكون للخلاسي وجه أوروبي مألوف، فكن حذراً منه؛ فهو شيطان. ولكن انظر إليه، إن وصيفك هذا له ملامح أكثر ألفة من ملامح الملك جورج، ملك إنكلترا. ومع ذلك، ها هو يومئ برأسه وينحني ويتسم. إنه ملك بالفعل... ملك القلوب الطيبة والأشخاص المهذبين. ويا لصوته هذا الذي يبعث على السرور».

«هذا صحيح يا سينيور».

«ولكن قل لي، ألم يكن هو، طوال معرفتك به، شخصاً طيباً وشريفاً؟» هذا ما قاله الكابتن ديLANو وهو يتوقف عن السير، بينما اختفى الوصيف بحركة ركوع أخيرة على ساق واحدة في القمرة. «قل لي، وللسبب الذي ذكرته للتوّ. يدفعني الفضول إلى أن أعرف».

«فرنثيسكو رجل طيب»، هكذا أجاب دون بينيتو بلهجة من يقيم بلامبالاة، ومن لا يعيب ولا يمدح.

«آه، هذا ما ظننته. فقد كان أمراً غريباً بالفعل، وليس قابلاً للتصديق بالنسبة إلينا نحن البيض البشرية، أنه لو مزج القليل من دمنا بالدم الأفريقي، فهل سيحدث أن هذا عوضاً عن أن يحسن نوعية الدم الأفريقي، سيكون له ذلك الأثر السيئ، أي إنه سيصبّ حمض الزاج في المرق الأسود، وتكون النتيجة تحسين اللون ربما، ولكن ليس الصحة».

«لا شك في ذلك يا سينيور، لا شك في ذلك، ولكن»، وهنا نظر إلى بابو ثم استأنف يقول: «إن لم نذكر الأفارقة، إلا أن ملاحظة صاحب المزرعة خاصتك سمعتها تقال عن المزيج الإسباني والهندي في مقاطعاتنا». ثم أضاف: «ولكني لا أعرف أي شيء حول هذه المسألة». وهنا دخلا إلى القمرة.

كانت وجبة الغداء مقتصدة، بعض من السمك والقرع الطازجين اللذين أحضرهما الكابتن ديLANو، والبسكويت ولحم البقر المملح وزجاجة من عصير التفاح المحفوظ، وآخر زجاجة «كاناري»<sup>8</sup> في سفينة «سان دومينيك».

حين دخلا، كان فرنسيسكو مع اثنين أو ثلاثة من المساعدين ملوّتي البشرة يحومون من حول المائدة وهم يقومون بالتعديلات الأخيرة. وحين لاحظوا وجود سيدهم تراجعوا، وصرّفهم فرنسيسكو بابتسامة؛ وقام الإسباني دون أن يتنازل فيلاحظ ذلك، بأسلوب من يصعب إرضاءه، بأن يقول لمرافقه بأنه يفضل عدم وجود الخدم غير الضروريين.

ودون رفقة، جلس المضيف والضيف كزوجين دون أطفال، عند نهايتي المائدة، ودون بينيتو يلوّح للكابتن ديLANO بأن يجلس، على الرغم من ضعفه، فهو يلحّ على ذلك الجنتلمان أن يسبقه في الجلوس.

وضع الزنجي بساطاً تحت قدمي دون بينيتو، ووسادة خلف ظهره، ثم وقف إلى الخلف، ليس خلف كرسي سيده، بل كرسي الكابتن ديLANO. في البدء، أدهش هذا قليلاً الكابتن ديLANO. ولكن سرعان ما تبين أنه في اتخاذ هذه الموقف، كان الزنجي ما يزال صادقاً في معاملته لسيده، بما أنه إذ يواجهه يستطيع أن يتوقع على الفور أيّ رغبة يعبر عنها.

همس الكابتن ديLANO عبر المائدة: «خادمك هذا ذكي إلى حدّ غير عادي يا دون بينيتو».

«صحيح ما تقوله يا سينيور».

خلال تناول الطعام، ألمح الضيف مجدداً إلى نواح معينة من حكاية دون بينيتو، وهو يرجو معرفة المزيد من التفاصيل عنها. سأل كيف أدّى داء الإسقربوط والحمى إلى سقوط كل أولئك الضحايا العديدين من البيض بينما لم يقتل سوى أقل من نصف عدد الزوج. وكان هذا السؤال أعاد إلى ذهن الإسباني كامل مشهد الوباء، وذكره على نحو محزن بوحدته في قمرة كان له فيها سابقاً الكثير من الأصدقاء والضباط من حوله، فارتجفت يده وشحب وجهه، وبدرت عنه كلمات غير واضحة. ولكن وعلى الفور، فإن الذكرى الطيبة من الماضي حلّت محل الرعب الجنوني للوقت الحاضر. راح يحدق بعينين مدهولتين أمامه في الفراغ. لم يكن هناك ما يمكن أن يُرى سوى يد الخادم وهي تدفع زجاجة الكناري نحوه. وأخيراً، فإن بضع رشقات من الماء أعادت إليه وعيه. ألمح إلى أن بنية الجسم تختلف من عنصر من البشر إلى آخر، مما يمكن عنصراً ما من مقاومة بعض الأمراض أكثر من غيره. وقد كانت هذه الفكرة جديدة بالنسبة إلى رفيقه.

في الوقت الحاضر، فإن الكابتن ديLANO كان ينوي أن يقول شيئاً ما لمضيفه يتعلق بالجزء المالي من المهمة التي تولّاها لأجله، وخاصة - حيث إنه كان مسؤولاً على نحو صارم أمام



مالكي سفينته - الطقم الجديد من الأشرطة والأشياء الأخرى من ذلك الصنف. وبالطبع كان هو يفضل أن يبحث في مثل هذه الأمور على انفراد، وكان راغباً في أن ينسحب الخادم من القمرة، متخيلاً أن دون بينيتو يمكن أن يستغني عن حضوره لبضع دقائق. ولكنه انتظر لفترة قصيرة على أي حال، معتقداً أنه مع تقدم الحوار فإن دون بينيتو، دون أن يتم حضمه على ذلك، سيدرك ملاءمة ذلك التصرف.

ولكن الأمر جرى بخلاف ذلك. فبعد أن استطاع أن ينظر في عيني مضيفه أخيراً، فإن الكابتن ديLANO مع إيماءة خفيفة معاكسة بإبهامه، همس قائلاً: «يا دون بينيتو، عفوك، ولكن هناك شأن مهم أودّ أن أخاطبك فيما يخصه، إلا أن هناك تدخلاً يعيق تعبيرى الكامل عما أودّ أن أسره إليك».

لدى سماعه هذا الكلام، تبدل وجه الإسباني، مما كان يعني أنه لا يوافق على ذلك التلميح الموجه إلى خادمه بأسلوب ما. وبعد صمت دام لبرهة، أكد لمضيفه أن بقاء الزوجي معهما لن يتسبب في أي ضرر؛ فهو منذ أن فقد ضباطه قد جعل من بابو (الذي كانت مهمته الأصلية - كما يبدو - قائداً للعبيد) ليس مجرد خادم ومرافق دائم له، بل أيضاً موطن أسراره في كل الأمور.

بعد هذا، لم يبقَ هناك من مجال للكلام؛ على الرغم من أن الكابتن ديLANO لم يستطع أن يتجنب بعض الامتعاظ لأنه لم تتم تلبية رغبة صغيرة له من شخص كان ينوي تقديم خدمات مهمة له. إذن، الأمر وما فيه أنه كثير التشكي، هكذا فكر. ملأ كأسه وبدأ يفضي بما يريد أن يفضي به.

تمّ الاتفاق على سعر الأشرطة والأمور الأخرى. ولكن خلال ذلك، لاحظ الأمريكي أنه بعد أن تمّ الترحيب بحيوية محمومة بما قدمه من عون، إلا أن الأمر الآن بعد أن تدنّى ليصبح مجرد صفقة تجارية، تحول إلى اللامبالاة وفتور المشاعر. بدأ دون بينيتو في الواقع وكأنه يخضع إلى الإصغاء إلى التفاصيل لمجرد اللياقة وليس من أجل تلك الفائدة الكبيرة التي تستفيد منها سفينته في رحلتها تلك.

سرعان ما أصبح سلوكه أكثر تحفظاً. كان أيّ جهد يُبذل لجعله ينخرط في حوار اجتماعي أمراً لا طائل منه. جلس وقد راح مزاجه النكد ينهشه، فبدأ يعبث بلحيته، بينما كانت يد خادمه الأخرس تدفع نحوه ببطء زجاجة الكاناري.

بما أن وجبة الغداء كانت قد انتهت، فقد جلسا فوق الرفادة المستعرضة التي تغطيها الوسائد. وضع الخادم وسادة خلف سيده. كان الاستمرار الطويل لسكون الريح قد ترك الآن أثره على الجو. تنهّد دون بينيتو بقوة، وكأنه يرغب في استنشاق المزيد من الهواء.

قال الكابتن ديLANو: «لمَ لا نلجأ إلى القمره الخاصة. هناك المزيد من الهواء». ولكن المضيف بقي صامتاً ودون حراك.

في هذه الأثناء، ركع خادمه أمامه ومعه مروحة كبيرة من الريش. وسلم فرنثيسكو، الذي دخل وهو يمشي على رؤوس أصابع قدميه، إلى الزنجي فنجاناً صغيراً من الماء المعطر راح الزنجي يفرك القليل منه بين الحين والآخر على جبين سيده؛ كما راح يمسّد له شعره على امتداد صدغيه كما قد تفعل المربية للطفل. لم ينطق بأيّ كلمة. كان يبقي عينيه على سيده فحسب، وكأنه يريد أن ينعش روح دون بينيتو بالمشهد الصامت للإخلاص ضمن تلك الكآبة التي كانت تحلّ به.

في هذا الوقت قرع جرس السفينة معلناً الساعة الثانية؛ وعبر نوافذ القمره كان ممكناً مشاهدة تموج البحر ومن الاتجاه المرغوب.

صاح الكابتن ديLANو: «إليك! لقد قلت لك ذلك يا دون بينيتو. انظر!».

كان قد نهض على قدميه، وهو يتحدث بلهجة مفعمة بالحوية، آملاً أن يثير اهتمام رفيقه. ولكن على الرغم من أن الستارة القرمزية للنافذة إلى القرب منه رفرفت على وجنته الشاحبة، إلا أن دون بينيتو بدا وكأنه أقل ترحيباً بالنسيم من ترحيبه بسكون الريح.

فكّر الكابتن ديLANو: يا للشخص المسكين، لقد علمته التجربة المريرة أن موجة واحدة لا تصنع ريحاً، كما ليس من شأن سنونوة واحدة أن تبشر بالصيف. ولكنه كان على خطأ هذه المرة. سأحرك له سفينته وأبرهن على صحة وجهة نظري.

ألمح باختصار إلى سوء صحة مضيفه فحثّه على البقاء جالساً بهدوء، في مكانه، بما أنه هو (الكابتن ديLANو) سيتحمل بكل سرور مسؤولية الاستفادة من الريح على أفضل نحو.

ما إن وصل الكابتن ديLANو إلى ظهر السفينة، حتى أجفل من مشاهدته للشكل غير المتوقع لأتوفال، الذي كان مثبتاً عند العتبة، أشبه بواحد من تلك التماثيل المنحوتة من الرخام الأسود التي توضع على بوابات القبور المصرية.

ولكن الإجفال في هذه المرة كان جسدياً محضاً. فقد كان حضور أتوفال، الذي يظهر سهولة الانقياد على نحو فريد حتى في تجهمه، يتباين مع حضور شاحذي البلطات الذين كانوا يؤكدون على صبرهم وجلدهم. وبينما كان كلا المشهدين يبرهنان على مدى رخاوة السلطة العامة لدون بينيتو، إلا أنه حين يختار أن يفرضها، فلا يوجد رجل مهما كان متوحشاً أو ضخماً الجثة إلا وهو مضطر إلى الرضوخ إليها إلى حدّ ما.

أمسك بيوق كان معلّقاً على جدار وبخطوة حرة تقدم الكابتن ديLANO نحو الحافة الأمامية للسطح المرتفع عند مؤخر السفينة وأصدر أوامره بأفضل لغة إسبانية يعرفها. وانطلق القلّة من البحارة والكثير من الزنوج، وقد شعروا بالسرور على حدّ سواء، فأطاعوا الأوامر الخاصة بجعل السفينة تصل إلى المرفأ.

وبينما كان يعطي توجيهاته حول تخفيض أحد الأشرعة، سمع الكابتن ديLANO فجأة صوتاً يكرر الأوامر بإخلاص. التفت فشاهد بابو وهو يمارس لأول مرة تحت إمرة القبطان، دوره كقائد للعبيد. وقد أثبتت هذه المساعدة أنها قيّمة. تمّ وضع الأشرعة الممزقة وعوارض الأشرعة المشوّهة ضمن ترتيب ما. ولم يتمّ جذب ملفاف أو حبل شرع إلا مع الأغاني المرححة للزنوج المبتهجين.

فكرّ الكابتن ديLANO: أشخاص جيدون. القليل من التدريب سيصنع منهم بحارة مهرة. عجباً، انظر أمامك، حتى النساء يجذبن ويغنين أيضاً. لا بدّ وأنهن زنجيات من «أشانتني» اللواتي يحاربن كجنديات خطيرات، كما سمعت. ولكن من على دفة المركب؟ لا بدّ من وجود مساعد جيد لي هنا.

مضى ليرى.

كان سفينة سان دومينيك تقاد بذراع دفة ثقيلة موصولة ببكرات أفقية. عند نهاية كل بكرة كان زنجي مأمور يقف هناك، وبينهما، عند رأس الذراع كان بحار إسباني هو الذي يقود، وكان وجهه يدل على نصيبه من اليأس الشامل والثقة من وصول النسيم.

وقد تبين أن هذا الإسباني هو الشخص نفسه الذي تصرف بوجه مترع بالخجل عند مرفاع المرساة.

صاح الكابتن ديLANO: «إذن، فهذا هو أنت أيها الرجل. حسناً، لا أريد المزيد من العيون الجبابة الآن. انظر إلى الأمام واجعل السفينة تستمر في سيرها في ذلك الاتجاه. أنت مساعد

جيد على ما أعتقد، أليس كذلك. وتريد أن تدخل إلى الميناء، أليس كذلك؟».

وافق الرجل بضحكة باطنية، وهو يمسك برأس ذراع الدفة بقوة. عند ذلك، ودون أن يلاحظ الأمريكي، كان الزنجيان يرمقان البحار بتصميم.

حين وجد الأمور حسنة عند الدفة، توجه القبطان إلى المثن الأعلى للسفينة ليرى كيف هي الأمور هناك.

كانت السفينة الآن قد بدأت تسير مع التيار. مع اقتراب المساء، فلا شك أن النسيم سيشتد.

بعد أن فعل كل ما هو مطلوب في الوقت الحاضر، اتجه الكابتن ديLANو، وهو يعطي أوامره الأخيرة، نحو مؤخر السفينة ليقدم تقريره عن الأمور إلى دون بينيتو؛ وربما كان ينوي إضافة إلى ذلك أن ينضم إليه آملاً أن يستطيع محادثته على انفراد لبرهة بينما الخادم مشغول على ظهر السفينة.

من كلا الجانبين المتقابلين، تحت السطح المرتفع عند مؤخر السفينة، كان هناك طريقتان إلى القمر، أحدهما أبعد إلى الأمام من الآخر، وبالتالي فهو يتصل بممر أطول. وإذا لاحظ أن الخادم ما يزال هناك في الأعلى، فإن الكابتن ديLANو، الذي اتخذ المدخل الأقرب - ذلك الذي ذكرناه سابقاً والذي كان أتوفال ما يزال يقف عند رواقه - قد أسرع في طريقه حتى وصل إلى عتبة القمر، فتوقف لبرهة، وذلك ليسترد أنفاسه من شدة لهفته. ثم دخل والكلمات الخاصة بالأمور المنوي فعلها على شفثيه. وحين تقدم نحو الإسباني الجالس، سمع وقع خطوات أخرى، تتابع وقع خطواته. من الباب المقابل، كان الخادم يتقدم هو أيضاً وفي يده طبق من الطعام.

فكر الكابتن ديLANو: يا له من شخص مخلص. يا لها من صدفة تبعث على الغيظ.

على الأرجح، ربما كان الغيظ شيئاً مختلفاً، لولا الثقة المنعشة المتأتية من النسيم. ولكن على الرغم من كل ذلك، فقد شعر بوخزة خفيفة من تداعٍ غير محدد للخواطر يربط في ذهنه ما بين بابو وأتوفال.

قال: «يا دون بينيتو، أودّ أن أمنحك البشرى. النسيم سيستمر وسوف يشتد. وبالمناسبة، فإن رجلك الطويل القامة والدقيق كالساعة، أتوفال، يقف في الخارج. بأمر منك، بالطبع، أليس كذلك؟».

انكمش دون بينيتو كأنما من لمسة لطيفة هازئة تمّت بمهارة تدل على ذوق حسن ولا تدعو إلى ردّ بالمثل.

إنه أشبه بشخص يُسلخ حياً، هكذا فكّر الكابتن ديLANO، أين يمكن للمرء أن يلمسه دون أن يتسبب في جعله ينكمش؟

تحرك الخادم قبل سيده، وعدّل من وضع الوسادة. أجاب الإسباني بلهجة متكلفة وقد عاد إلى مزاج تسوده الكياسة: «أنت على حق. يبدو أن العبد هناك حيث رأيتَه أنت، وفقاً لأوامري التي تفيد بأنه لو حدث وكنت في أسفل السفينة في ساعة معينة، فعليه أن يقف وينتظر قدومي».

«ولكن اعذرنى، إنما هذا يشبه معاملة الرجل المسكين كملك سابق بالفعل. آه، يا دون بينيتو». ابتسم ثم قال: «على الرغم من كل الحرية المساء استخدامها والتي تسمح بها في بعض الأمور، أخشى أنك في صميمك سيد قاسي الفؤاد جداً».

ومن جديد انكمش دون بينيتو، وفي هذه المرة، كما ظن البحار الطيب، من وخزة حقيقية لضميره.

ومجدداً، أصبح الحوار متكلفاً. وعبثاً لفت الكابتن ديLANO الانتباه إلى الحركة الملموسة لعارضة المركب وهي تشق عباب البحر بلطف؛ وبعين تفتقر إلى البريق، أجاب دون بينيتو بكلمات قليلة ومتحفظة.

في هذه الأثناء، وبعد أن اشتدت الرياح، ومع هبوبها باتجاه المرفأ، فقد دفع بسان دومينيك بسرعة إلى الأمام. شوهدت سفينة صيد الفقمة على مسافة وهي تصدر صوتاً قريباً من البر.

في هذه الأثناء كان الكابتن ديLANO قد عاد إلى ظهر السفينة، وبقي هناك لبعض الوقت. وبعد أن غير اتجاه سير السفينة أخيراً، حتى يسمح للشراع أن يبقي مسافة واسعة بين السفينتين، عاد للحظات قصيرة إلى الأسفل.

فكّر: سأدخل البهجة على قلب صديقي المسكين في هذه المرة.

حين دخل مجدداً صاح بمرح: «أفضل وأفضل. سرعان ما ستكون هناك نهاية لهمومك، وعلى الأقل في الوقت الحاضر. فبعد رحلة طويلة وحزينة وحين تسقط المرساة في المرفأ، فإن كل ثقلها الهائل يبدو وكأنه قد رُفِع عن قلب القبطان. نحن نتقدم على نحو ممتاز يا دون

بينيتو. سفيني أضحى مرثية. انظر من خلال هذه الفتحة هنا. إنها هناك. سفينة (متعة العازب) يا صديقي الطيب. آه، كيف تقوي هذه الرياح من عزيمة المرء. هيا، يجب أن تتناول فنجاناً من القهوة معي هذا المساء. سيقدم إليك وصيفي العجوز فنجان قهوة لم يذق مثله حتى أي سلطان من السلاطين. ما رأيك يا دون بينيتو، هل ستفعل؟».

أولاً، رفع الإسباني نظره إلى الأعلى على نحو محموم ثم رنا إلى سفينة صيد الفقمات بتوق، بينما راح خادمه بقلق أخرس يحدق إلى وجهه. وفجأة عاد الألم القديم المترع بالبرود إليه، فارتدى على وسائده وصمت.

«أنت لا تجيبني. هيا بنا، فأنت كنت مضيبي طوال هذا اليوم. هل تريد لروح الضيافة أن تكون كلها من جانب واحد؟».

كان الجواب: «لا أستطيع الذهاب».

«ماذا؟ لم تصاب بالتعب؟ ستقف السفينتان الواحدة إلى جانب الأخرى بقدر المستطاع، دون تأرجح. لن يكون الأمر أكثر من الخطو من ظهر سفينة إلى أخرى؛ كما هو المرور من غرفة إلى أخرى. هيا بنا، ليس عليك أن ترفض طلبي».

كرر دون بينيتو بلهجة حاسمة ومنفرة: «لا أستطيع الذهاب».

لقد تخلى عن كل مظاهر اللباقة إلا بقية باقية منها، وذلك بنوع من النكد شديد الشحوب. راح يقضم أظافر يده حتى آخرها، وهو ينظر ويحملك مغضباً تقريباً إلى ضيفه، وكأنه نافذ الصبر من حضور شخص غريب يتطفل بتسامح كامل على معاناته من المرض. في هذه الأثناء، كان صوت المياه التي يتم شقها يأتي على نحو أكثر فأكثر قرقرة ومرحاً من النوافذ؛ وكأنها تؤنبه على نكده، أو كأنها تقول له، إنها رغم نكده وجنونه فالطبيعة لا تابه أبداً به، فمن هو المخطئ؟

ولكن المزاج العكر كان الآن في أعرق حالاته، كما الرياح القوية في أقصى حالاتها.

كان هناك شيء ما في هذا الرجل يتجاوز حدود الكياسة أو الغضب وقد سبق له وتبدى للعيان، حتى إن طيبة معشر ضيفه وتذرعه بالصبر ما عاد ممكناً لهما أن يصمدا أكثر من ذلك. بدأت كبرياء الكابتن ديلاانو تثور وقد عجز عن أن يفهم مثل هذا السلوك؛ على الرغم من اعتباره للمرض مع غرابة الأطوار، مهما بلغا من الحدة، كعذر ملائم. كما أنه لم ير في سلوكه

أيّ مبرر لذلك. ولكن الإسباني لم يكثر قط. غادره الكابتن ديLANO مرة أخرى ومضى إلى ظهر السفينة.

كانت السفينة الآن ضمن مسافة تقل عن ميلين عن سفينة صيد الفقعات. شوهد زورق صيد الحيتان وهو يسرع قاطعاً هذه المسافة.

باختصار، فإن السفينتين، بفضل مهارة القبطان، سرعان ما رستا معاً.

قبل العودة إلى سفينته، كان الكابتن ديLANO ينوي أن يبلغ دون بينيتو بتفاصيل صغيرة عن الخدمات المقترحة التي سيتم تقديمها. ولكن مع أن الوضع كان على ذلك المنوال، وبسبب عدم رغبته في أن يعرض نفسه مجدداً للرفض، فقد قرر أنه، بعد أن رأى سان دومينيك وقد رست بأمان، أن يغادرها على الفور، دون أن يلمح مرة أخرى إلى الضيافة أو الأعمال. لقد أجّل خطته التالية وسوف ينظم أفعاله التالية وفقاً للظروف المستقبلية. كان قاربه جاهزاً لاستقباله، ولكن مضيفه كان ما يزال متلكناً هناك في الأسفل. حسناً، فكّر الكابتن ديLANO، لو كان يتحلّى بأيّ كياسة ولو صغيرة، فهناك حاجة إلى أن أظهر كياستي أنا. هبط إلى القمرة ليؤدي وداعاً احتفالياً وفيه شيء من اللوم المفهوم ضمناً. ولكنه أحسّ برضا عظيم إذ إن دون بينيتو، وكأنه بدأ يشعر بثقل تلك المعاملة التي عامل بها ضيفه الذي تعرض للإهمال والاستخفاف، قد بادر، وخادمه يدعمه، بالنهوض على قدميه، وأمسك بيد الكابتن ديLANO، ووقف هناك وهو يرتجف، وقد عجز عن الكلام لشدة إثارته. ولكن هذه البشرى الطيبة سرعان ما تراجعت حين عاد للجلوس بصمت على وسائده، وهو يستعيد تحفظه السابق كلّ مع كل كآبته المعززة. انحنى الكابتن ديLANO وقد عادت إليه مشاعره المتحفظة، وانسحب من القمرة.

ما كان قد تخطى منتصف الممر الضيق، المعتم كنفق، والذي يؤدي ما بين القمرة والدرج، حتى سمع صوتاً أشبه بقرع الناقوس من أجل تنفيذ عملية إعدام في ساحة من ساحات أحد السجون. وكان ذلك صدى قرع جرس السفينة المصدوع وهو يعلن تمام الساعة، ويتردد بكآبة في هذا السرداب شبه الخفيّ. وعلى الفور، فإن ذهنه الذي طغى عليه ميل إلى الهلاك لا يمكن مقاومته، استجاب لهذا النذير، فعجّ بریب وهمية. توقف. اجتاحت بصور أسرع بكثير من هذه الجمّل أدق تفاصيل جميع شكوكه السابقة.

حتى الآن، كانت طبيعته السمحة والسريعة التصديق مستعدة لإيجاد أعذار للمخاوف

المعقولة. لمَ كان الإسباني، الحريص إلى حدّ مفرط على الشكليات أحياناً، يهمل الآن بنداً شائعاً من بنود اللياقة في عدم مرافقته لضيفه المغادر؟ هل كان توقعه الصحي هو الذي منعه من ذلك؟ لم يمنعه توقعه من بذله جهداً أكثر إزعاجاً في هذا اليوم؟ تذكر آخر سلوك مريب لضيفه. كان قد نهض على قدميه، وأمسك بيد ضيفه، وأوماً إلى قبعته. ثم وخلال برهة قصيرة، انكسف هذا كَله بصمت وكآبة مشؤومتين. هل كان ذلك تلميحاً إلى ليونة مشوبة بالندم في آخر لحظة، في تراجع عن مكيدة شريرة، تبعها نكوص عديم الشفقة إليها؟ بدت نظرتة الأخيرة وكأنها تعبر عن وداع مفجوع أبدي للكابتن ديLANO إنما يسوده الإذعان. لمَ ذلك الرفض لدعوة لزيارة سفينة صيد الفقمة في ذلك المساء؟ أو هل كان الإسباني أقل قسوة من اليهودي الذي لم يرفض تناول العشاء على حساب شخص كان ينوي أن يخونه في تلك الليلة نفسها؟ ما الذي أوحى بكل تلك الألغاز والتناقضات التي دامت النهار بطوله، باستثناء أن الغرض منها كان الإرباك، تمهيداً لضربة مختلطة ما؟ كان أتوفال، المتمرد المزعوم، إنما الظل الدقيق كالساعة، واقفاً عند العتبة في الخارج. بدا وكأنه حارس، بل وأكثر من ذلك. من الذي وضعه هناك وذلك باعترافه هو؟ هل كان الزنجي الآن يتهيأ للانقضاض؟

كان الإسباني في الخلف... ومخلوقه هذا أمامه: الاندفاع من العتمة إلى النور كان الخيار غير الطوعي.

في اللحظة التالية، وبفك ويد منقبضين، مرّ بأتوفال، ووقف سالماً في النور. وحين شاهد سفينته الأنيقة تنتظر بأمان في المرسى، وهي على مسافة قريبة، وحين رأى قاربه المؤلف، والوجوه المؤلفه فيه، وهو يصعد ويهبط بصبر، فوق الأمواج القصيرة إلى جانب سان دومينيك؛ وحين نظر إلى ظهر السفينة من حيث كان يقف، فقد رأى لاقطي نتف الحبال وهم ما يزالون يثنون أصابعهم بجدية. ثم سمع الصفير الخفيض مع الأزيز والهمهمة الكادحة لشاحدي البلطات، وهم ما يزالون منهمكين في مهمتهم التي لا نهاية لها. وأكثر من ذلك كَله، وبينما رأى اعتدال الطبيعة التي كانت تمارس سباتها البريء في المساء، فإن الشمس التي كانت قد حجبت في المعسكر الغربي راحت تومض بنور رقيق كأنما كان يصدر عن خيمة أبراهام. وبينما كانت العين والأذن المفتونتان تستعرضان هذا كَله، مع الشكل المقيد بالسلاسل للزنجي، فقد ارتخى الفك واليد المنقبضين. ومن جديد، ابتسم باتجاه الأشباح التي كانت تسخر منه، وشعر بشيء ما أشبه بوخزة ندم، لأنه حين تصورها حتى ولو للحظة، فإنه أبدى ضمناً شكاً إحدائياً بالنعناية الإلهية الأبدية اليقظة.



حصل تأخير لبضع دقائق، حين تمّ شدّ القارب بخطاف إلى جانب السفينة بناء على أوامره. خلال تلك الفترة، فإن نوعاً من الرضا الحزين طغى على الكابتن ديلاانو، حين فكّر في الأفعال الكريمة التي قدمها في ذلك اليوم إلى شخص غريب. فكر: آه، بعد الأفعال الكريمة لا يكون ضمير المرء خالياً من الامتنان، مهما كان الطرف الذي استفاد من ذلك كله.

في الوقت الحاضر، وبينما راحت قدمه تطأ السلم الجانبي في أول حركة من حركات هبوطه إلى الزورق، فقد كان وجهه متجهاً نحو ظهر السفينة. في تلك اللحظة نفسها، سمع اسمه يُلفظ بأسلوب دمث؛ ولدهشته الباعثة على السرور فقد شاهد دون بينيتو يتقدم... بحيوية غير مألوفة في الجو، في آخر لحظة، وبنية التعويض عن فظاظته الأخيرة. وبشعور طيب وغريزي، فإن الكابتن ديلاانو، سحب قدمه والتفت وتقدم هو أيضاً بحركة تبادلية. وبينما كان يفعل ذلك، تعاضمت لهفة الإسباني العصبية، إلا أن طاقته الحيوية تضاءلت؛ لذلك فإن الخادم، حرصاً منه على دعمه، وضع يد سيده على كتفه العاري وتركها هناك بلطف، مشكلاً من نفسه نوعاً من العكاز.

وحين تقابل القبطانان، أمسك الإسباني مجدداً بيد الأمريكي بحماسة، وراح في الوقت نفسه ينظر بتوق إلى عينيه، ولكن، كما في السابق، لم يتمكن من الكلام لشدة ضعفه.

فكّر الكابتن ديلاانو وهو يلوم نفسه: لقد أخطأت في حقّه، فإن سلوكه الفاتر قد خدعني. لم يكن عازماً على إهانتني في أيّ لحظة.

في هذه الأثناء، وكأنما خشي الخادم من أن استمرار المشهد قد يوتر أعصاب سيده، فقد بدا حريصاً على وضع حدّ له. وهكذا، وبينما كان ما يزال يلعب دور العكاز، وهو يمشي بين القبطانين، فقد تقدم بهما نحو الممر؛ بينما كان دون بينيتو، وكأنه مترع بندم مشوب باللطف، لا يترك يد الكابتن ديلاانو، بل يحتفظ بها في يده عبر جسد الزنجي.

سرعان ما أصبحا واقفين عند جانب السفينة وهما يطلان على الزورق الذي كان طاقمه قد رفع أعضاؤه عيونهم نحوهما. راح الكابتن ديلاانو، الذي أحسّ بالحرج الآن، يرفع قدمه - وهو ينتظر لبرهة بينما يتخلى الإسباني عن تشبته بيده - وذلك ليتخطى عتبة الممر المفتوح؛ ولكن دون بينيتو ما كان ليتخلى عن يده. ومع ذلك، قال بلهجة مستثارة: «لا أستطيع أن أمضي أكثر من ذلك. هنا عليّ أن أقول لك وداعاً. وداعاً يا عزيزي يا دون أمازا العزيز... امضِ!» وهو يتخلى عن يد الكابتن ديلاانو فجأة. «اذهب وليحرسك الرب على نحو أفضل

من حراسته لي يا أفضل الأصدقاء».

ودّ الكابتن ديLANو، وقد تأثر مما جرى، أن يتمهل، ولكنه حين رأى عين الخادم المحذرة بخنوع، هبط إلى زورقه وهو يتلفظ بكلمات وداع سريعة، تتبعه كلمات الوداع المتواصلة من دون بينيتو الذي وقف في الممر دون حراك.

جلس الكابتن ديLANو في مؤخر الزورق وهو يؤدي آخر تحية، وأمر بأن ينطلق الزورق. كان الطاقم مستعداً بمجازيفه. دفع المجذفون الأماميون بالزورق إلى مسافة كافية بحيث تسمح للمجازيف بأن تسقط طولانياً في الماء. وفي اللحظة التي تمّ فيها هذا الأمر، قفز دون بينيتو من فوق الحاجز وسقط عند قدمي الكابتن ديLANو؛ وفي الوقت نفسه كان ينادي سفينته، ولكن بلهجة مجنونة إلى حدّ أنه لم يفهمه أحد ممن كانوا في الزورق. ولكن وكأنما لم يكن ثلاثة من البحارة - من مختلف أجزاء السفينة - بليدي الذهن إلى حدّ مساوٍ، فقد رموا بأنفسهم في البحر وراحوا يسبحون في إثر قبطانهم وكأنهم مصممون على إنقاذه.

سأل ضابط الزورق الذي انتابه الرعب عن معنى ما جرى. فأجابه الكابتن ديLANو، وهو يلتفت بابتسامة ازدراء نحو الإسباني الذي تصرف على نحو قابل للتعليل قائلاً إنه لا يعرف ولا يكثرث. ولكن بدا وكأن دون بينيتو كان قد قرر أن يعطي انطباعاً لدى جماعته بأن جماعة الزورق يريدون خطفه. أضاف الكابتن ديLANو بلهجة مسعورة وقد أجفل من صخب وقعقة صادرة عن السفينة، وكان ناقوس الخطر المتمثل بحركات شاحذي البلطات يرنّ. أمسك بدون بينيتو من حنجرتة وأضاف قائلاً: «هذا القرصان المتآمر ينوي القتل!» وهنا، وفي إثبات جليّ لكلماته، شوهد الخادم، وخنجر في يده، فوق الحاجز في الأعلى، وقد وقف مستعداً للقفز، وكأنه في إخلاص يائس يريد أن يلازم سيده حتى النهاية. وبينما كان البحارة البيض الثلاثة يتظاهرون بأنهم يساعدون الزنجي، فقد كانوا يحاولون الصعود إلى مقدمة الزورق المزدحمة. في هذه الأثناء، فإن جميع الزنوج، وكأنما غضبوا من مشهد قبطانهم المعرض للخطر، قد تجمعوا في تيهور بلون السخام فوق حاجز السفينة.

وقد حدث هذا مع ما سبقه، وما تبعه، بالتفافات سريعة بحيث بدا الماضي والحاضر والمستقبل شيئاً واحداً.

وحين شاهد الكابتن ديLANو الزنجي وهو قادم نحوهم، فإنه دفع بالإسباني جانباً، تقريباً خلال قيامه بالإمساك به، وبتراجع غير واعٍ، فقد بدّل مكانه، وذراعاه مرفوعتان، بحيث أمسك

بالخادم وهو يهبط، وقد شهر خنجره باتجاه قلب الكابتن ديلانو، وبدا وكأنه تعمّد القفز إلى هناك. ولكن السلاح انثُرَ منه، وسقط المهاجم في قعر الزورق الذي راح الآن بمجازيف حرة يسرع في شق طريقه عبر البحر.

في تلك اللحظة الحاسمة، فإن اليد اليسرى للكابتن ديلانو، من جانب، أمسكت مرة أخرى بدون بينيتو نصف المستلقي، والغافل عن أنه واقع في غشية خرساء، بينما قدمه اليمنى، من الجانب الآخر، راحت تطحن الزنجي المنبطح. أما ذراعه اليمنى فقد كانت تضغط من أجل المزيد من السرعة على المجذاف الخلفي، وعينه مثبتة إلى الأمام، وهو يشجع رجاله على أن يبذلوا أقصى ما في طاقتهم.

ولكن هنا، فإن ضابط الزورق الذي نجح أخيراً في التخلص من البحارة المطاردين، وكان وقد أدار وجهه إلى مؤخر الزورق يساعد المجذاف الأمامي على تحريك مجذافه، نادى فجأة الكابتن ديلانو ليعرف ما كان يفعله الزنجي؛ بينما راح مجذف برتغالي يصرخ به حتى ينتبه إلى ما يقوله الإسباني.

شاهد الكابتن ديلانو وهو يرنو إلى قدميه اليد الحرة للخادم وهي تهدّف بخنجر آخر - خنجر صغير كان قد خبّأه في شعره الكثّ الجعد - وبهذا كان يتلوى كأفعى وهو ينهض من قعر الزورق مسدداً الخنجر نحو قلب سيده، ووجهه مترع بحقد شاحب، معبراً عن الهدف المتمركز لروحه؛ بينما كان الإسباني نصف المختنق، يحاول الابتعاد عنه عبثاً، وينطق بكلمات مبحوحة، غير مفهومة إلا من قبل البرتغالي.

في تلك اللحظة، ومض وحي عبر الذهن الغافل للكابتن ديلانو، فأوضح بجلاء غير متوقع سلوك مضيفه الغامض كلّ، وذلك خلال كل حدث ملغز من أحداث ذلك اليوم، وذلك عبر الرحلة السابقة كلّها لسفينة سان دومينيك. ضرب بقوة يد بابو ولكن قلبه ضربه بقوة أكبر. وبشفقة لامحدودة فقد تخلّى عن إمساكه بدون بينيتو. لم يكن الزنجي حين قفز إلى الزورق ينوي طعن الكابتن ديلانو، ولكن دون بينيتو.

تمّ الإمساك بكلتا يدي الزنجي، بينما راح الكابتن ديلانو يرفع عينيه نحو سان دومينيك، وقد أصبح كل شيء جلياً له، فشهد الزوج وقد انتزعت الأقنعة عن وجوههم، شاهدتهم ليسوا في حالة من الفوضى، وليسوا في حالة من الشغب، وليس وكأنهم قلقون إلى حدّ الجنون على مصير دون بينيتو، بل في حالة من التمرد القرصاني الضاري. كان الأشانتي الستة، وهم أشبه

الآن بدراويش سود البشرة في حالة من الهذيان، يرقصون فوق السطح المرتفع عند مؤخر السفينة. ولأنهم منعوا من قبل أعدائهم من القفز إلى الماء، فإن الفتیان من الإسبان كانوا يهرعون نحو الساريات العالية، بينما كان القليل من البحارة الإسبان الذين لم يقفزوا إلى البحر، أقل يقظة، وأقل ظهوراً وقد اختلطوا فوق ظهر السفينة بالزنوج.

في هذه الأثناء راح الكابتن ديLANO يصيح بسفينته وهو يأمر رجاله بأن يفتحوا البوابات ويخرجوا المدافع. ولكن عند ذلك كان قد تمّ قطع كبل سان دومينيك، ولكن ما تبقى منه أطاح بالغطاء القماشي عن مقدمة السفينة فكشف فجأة، حين تأرجح بدن السفينة الذي تحول لونه إلى الأبيض نحو المحيط المكشوف عن رمز للموت تجلّى في هيكل عظمي لإنسان وكتابة بالطباشير تقول: «اتبع قائدك».

عندما شاهد دون بينيتو ذلك، فقد غطى وجهه وأعول قائلاً: «ذلك هو، أراندا! صديقي القتل الذي لم تُدفن جثته».

لدى وصوله إلى سفينة صيد الفقما، أمر الكابتن ديLANO بإحضار حبل قيد به الزنجي الذي لم يبد أي مقاومة، وطلب رفعه إلى ظهر السفينة. كان يريد أن يقدم العون لدون بينيتو العاجز عن الحركة ليصعد إلى السفينة؛ ولكن دون بينيتو، على الرغم من ضعفه، رفض أن يتحرك حتى يتمّ أولاً وضع الزنجي خارج مرمى نظره. وحين تمّ التأكيد على فعل ذلك، لم يعد يرفض الصعود إلى السفينة.

طلب من الزورق العودة على الفور لإحضار البحارة الثلاثة العائمين. في هذه الأثناء، تمّ تحضير المدافع، على الرغم من أن سان دومينيك، بعد أن انزلت باتجاه مؤخر سفينة صيد الفقما، لم يعد ممكناً إصابتها إلا باستخدام المدفع الخلفي. وبهذا المدفع تمّ إطلاق ست قذائف بهدف تعطيل السفينة الهاربة بتحطيم صواريخها. ولكن كل ما جرى كان قطع بعض الحبال غير الرئيسة. أصبحت السفينة بعيدة عن مرمى المدفع وهي تخرج من الخليج؛ والزنوج يحتشدون من حول الصاري، فمرة يصرخون مؤننين وساخرين باتجاه الرجال البيض، وأخرى يقومون بحركات تحتفل الآن بالمستنقعات المعتمة للمحيط... غربان ناعبة تخرج من يد صائد الطيور.

عندما سأل الكابتن ديLANO دون بينيتو عن الأسلحة النارية التي كانت على متن سان دومينيك، أجابه هذا بأنه لا يوجد أي سلاح ناري يمكن استخدامه؛ لأنه في المراحل الأولى من التمرد،

فإن مسافراً كان يحتل إحدى القمرات، وقد قُتل في حينه، قد عطل سراً أقفال البنادق القليلة التي كانت موجودة على متن السفينة. ولكن دون بينيتو، وبكل ما تبقى له من قوة، توسل إلى الأمريكي ألا يطارد سان دومينيك بالسفينة أو بأحد زوارقها؛ فالزواج قد سبق لهم وأضحوا مجرمين متهورين يائسين، حتى إنه لو حدث أي هجوم ضدهم، لن يتورعوا عن ذبح جميع الرجال البيض. ولكن فيما يخصّ هذا التحذير الصادر عن شخص سبق أن تحطمت روحه بالبؤس، فإن الأمريكي لم يتخلّ عن تصميمه.

تمّ تجهيز الزوارق وتسليحها. أمر الكابتن ديLANO رجاله بالركوب فيها. وكان هو ذاهباً بنفسه حين أمسك دون بينيتو بذراعه.

«ماذا؟ هل أنقذت حياتي يا سينيور، وأنت على وشك أن تضيع حياتك الآن؟».

وقد اعترض الضباط بقوة، لأسباب تتعلق بمصالحهم ومصالح الرحلة، وكواجب تجاه أصحاب السفينة، على قيام قائدهم بهذه المغامرة. أخذ الكابتن ديLANO يزن اعتراضاتهم لبرهة، فشرع بأنه ملزم بالبقاء؛ فعينّ كبير مساعديه، وهو رجل رياضي البنية وذو تصميم كان قد سبق له وعمل كربيان سفينة جواسة تطوف في البحر طلباً للغنيمة من العدو، أن يرأس الفريق. وحتى يشجع البحارة على نحو أكبر، فقد قيل لهم إن القبطان الإسباني يعتبر سفينته وكأنها ضائعة؛ وإن قيمة السفينة وحمولتها، بما فيها من الذهب والفضة، تُقدر جميعاً بألف دولار<sup>2</sup>. استولوا عليها وهي لكم كلّها. هنا أجاب البحارة بالصياح.

كان الهاربون قد سبق لهم وأصبحوا في عرض البحر، وكان الليل قد حلّ تقريباً، ولكن القمر قد أخذ يبرز. بعد تجذيف شاق وطويل، وصلت الزوارق إلى القرب من السفينة؛ وعند مسافة ملائمة تخلّوا عن المجاذيف لإطلاق النار من بنادقهم. وبما أن الزوج ما كانوا يملكون رصاصات يردّون بها، فقد ردّوا عليها بالصراخ. ولكن عند إطلاق الوابل الثاني من الرصاصات، فقد ردّ هؤلاء ببلطاتهم، كما من شأن الهنود (سكان أمريكا الأصليين) أن يفعلوا. وقد قطعت إحدى تلك البلطات أصابع أحد البحارة. واستقرت بلطة أخرى في مقدمة زورق صيد الحيتان، فقطعت الحبل الذي هناك، وبقيت عالقة في الحافة العليا من جانب المركب كفأس حطاب. سحبها مساعد القبطان وهي ترتجف من المكان الذي استقرت فيه، وربما باتجاه السفينة. وقد استقرت هذه البلطة (الأشبه بقفاز التحدي الذي يعاد رمية في وجه الخصم) في مؤخر السفينة وبقيت هناك.

وبما أن الزنوج أبدو استقبالاً حاراً جداً، فإن الرجال البيض البشرة بقوا على مسافة جديدة أكثر اتساماً بالاحترام. راحوا يتحركون الآن بعيداً عن مدى رمي البلطات، وكان القصد من ذلك، ريثما يتمّ الصدام عن قرب وهو سيتمّ قريباً، أن يخدعوا الزنوج حتى يتجردوا من أكثر أسلحتهم فتكاً خلال حصول صراع بالأيدي، وذلك أن يرمي هؤلاء عن حماقة هذه البلطات كأنها قذائف فتقع في البحر. ولكن حصل قبل مرور وقت طويل، أن أدرك هؤلاء هذه الخدعة، فتوقف الزنوج عن رمي البلطات، ولكن ليس قبل أن يتسلح الكثير منهم بقضبان تستخدم كمخل في السفن بدلاً عن بلطاتهم الضائعة. وهذا التبديل برهن على أنه كان في مصلحة المهاجمين.

في هذه الأثناء، ومع هبوب ريح قوية، كانت السفينة ما تزال تشق الماء، والزوارق تتراجع عنها بالتناوب، وتحاول أن تقترب منها للقيام بإطلاق وابل جديد من الرصاصات.

كانت النيران موجهة على الأغلب نحو مؤخر السفينة، لأن الزنوج كانوا يحتشدون هناك في الوقت الحاضر. ولكن الهدف لم يكن قتل الزنوج أو تشويهم. كان الهدف استرداد السفينة واستردادهم هم أيضاً. وحتى يتمّ ذلك، لا بدّ من الصعود إلى السفينة، ولم يكن ذلك ممكناً من قبل زوارق وهي تبهر بتلك السرعة.

خطرت الآن فكرة لمساعد القبطان. لاحظ أن الفتية الإسبانية كانوا ما يزالون في مكان مرتفع من السفينة، وقد صعدوا إلى أعلى مكان أمكنهم الصعود إليه، فطلب منهم الهبوط إلى عوارض الأشعة، وأن يقطعوا الأشعة. وقد تمّ ذلك. في هذه الأثناء، ولأسباب لم تعرف إلا لاحقاً، فإن اثنين من الفتية الإسبانية، المرتديين لملابس البحارة، وقد تمّت مشاهدتهم بوضوح، قد تمّ قتلهم، ليس بوابل الرصاص، بل من قبل رام بارع وعلى نحو متعمّد؛ بينما، وكما ظهر لاحقاً، فإن أتوفال الزنجي والإسباني الذي كان عند الدفة قد قُتلا أيضاً. إذن، الآن مع تعطل الأشعة وفقدان القادة، فإن الزنوج ما عادوا قادرين على إدارة أمور السفينة.

التفت السفينة بأشعة زاعقة مع هبوب الريح؛ ومقدمتها تتأرجح تحت نظر ركاب الزوارق، وهيكلها يومض تحت نور القمر الأفقي، وهي ترمي بظل مضلع هائل فوق الماء. كانت إحدى أذرع الشبح الممتد يبدو وكأنه يلوح للرجال البيض حتى ينتقموا له.

صاح مساعد القبطان: «اتبعوا قائدكم»، وصعدوا إلى ظهر السفينة واحداً إثر آخر من مقدمة الزورق. راحت رماح صيد الفقمات والسيوف المقوسة تتشابك مع البلطات والمخل.

وراحت الزنجيات المحتشدات في وسط السفينة ينشدن نائحات بينما كانت جوتهنّ صليل الفولاذ.

ضعف الهجوم لفترة من الوقت، بينما راح الزوج يحتشدون لصدّه. وراح البحارة نصف المصدودين وغير القادرين حتى الآن على الحصول على موطن قدم، يقاتلون كما الجنود الفرسان، بساق فوق جانب السفينة وأخرى دون ذلك، وهم يلوحون بسيوفهم المقوسة وكأنها سياط سائقي العربات. ولكن كان ذلك كله دون طائل. كادوا أن يهزموا تقريباً، ولكنهم تجمعوا في ثلة واحدة وكانهم رجل واحد، وراحوا يصيحون صيحة الظفر، وقفزوا إلى متن السفينة، حيث وقعوا في شرك فانفصلوا مجدداً لإرادياً. ضمن مسافة قصيرة، سُمع صوت غامض مكتوم باطني وكأنه لسمكة أبي سيف غير مرئية وهي تندفع هنا وهناك عبر أفواج من السمك الأسود. وسرعان ما ظهر على السطح البحارة البيض وقد انضم إليهم بعض البحارة الإسبان في جماعة موحدة، وراحوا يدفعون على نحو لا يقاوم بالزوج إلى مؤخر السفينة. ولكن متراًساً من البراميل الخشب والأكياس كان قد نُصب من هذا الجانب إلى الجانب الآخر قرب الصاري الرئيس. وهنا قاوم الزوج، وعلى الرغم من ازدرائهم للسلام أو الهدنة، إلا أنهم كانوا سيقبلون فترة راحة بسرور. ولكن وبدون توقف، راح البحارة المصممون يتجاوزون الحاجز ويتقدمون. قاتل الزوج المنهكون الآن بيأس. وراحت ألسنتهم الحمر تتدلى، كألسنة الذئب، من أفواههم السود. ولكن أسنان البحارة الشاحبة اللون كانت مطبقة على بعضها بعضاً، دون أن يصدر عنهم أي كلمة. وخلال خمس دقائق كانت السفينة قد تمّ كسبها.

قُتل حوالي العشرين من الزوج. وباستثناء أولئك الذين قتلوا بالرصاص المكور، فقد أصيب الكثيرون، وكانت جروحهم - معظمها تعود إلى الرماح الطويلة الحدّ الخاصة بصيد الفقمة، وتشبه تلك الرماح الحادة التي استخدمها الإنكليز في «برستون بانز»<sup>10</sup>، والمصنوعة من مناجل مثبتة على قضبان من الحديد الخاصة بسكان مقاطعة هايلاندز في اسكتلندا. ومن الجانب الآخر لم يقتل أي رجل من طاقم سفينة الكابتن ديلاانو على الرغم من إصابة العديدين بجراح، والبعض منهم جروحهم خطيرة، بما في ذلك مساعد القبطان. تمّ حجز من تبقى من الزوج في مكان آمن، وقطرت السفينة إلى الميناء في منتصف الليل، وتمّ إرساؤها مرة أخرى.

إذا تغاضينا عن ذكر الأحداث والترتيبات التي تلت ذلك، فإنه يكفي أن نذكر أنه بعد يومين

أنفقا على إصلاح الأمور، أبحرت السفينتان معاً إلى ميناء كونثسيون في تشيلي، ومن هناك إلى ليما في البيرو، حيث تمّ عرض القضية كلّها، منذ بدايتها، على محاكم نائب الملك وفتح التحقيق فيها.

وعلى أيّ حال، وفي منتصف الرحلة، فإنّ الإسباني السيئ الحظ الذي تحرر من الضغوط (بينيتو سيرينو)، قد أظهر بعض أمارات استرداد العافية طوعاً. ومع ذلك، وعلى نحو يتفق مع توقعه للمصيبة، فإنه قبل الوصول إلى ليما بوقت قصير، انتكست حالته الصحية، فأصبح ضعيفاً إلى حدّ أنه حُمِل إلى الشاطئ بين الأذرع. وحين سمعت بحكايته ومأساته إحدى المؤسسات الدينية العديدة في «سيّتي أوف كينغز»، فإنها آوته على نحو مضياف، حيث كان الطبيب والكاهن ممرضين له، كما تطوع أحد أعضاء الطائفة الكبار في السنّ بأن يكون وصياً عليه ومواسياً له ليلاً ونهاراً.

المقتطفات التالية المترجمة من الوثائق الإسبانية الرسمية ستلقي الضوء، كما نأمل، على حكايتنا السابقة، كما ستكشف أولاً عن الميناء الحقيقي للإبحار والمسار الحقيقي لرحلة سان دومينيك، حتى وصولها إلى جزيرة سانتا ماريا.

ولكن قبل الوصول إلى المقتطفات، فإنه يحسن أن نكتب لها مقدمة هي عبارة عن ملاحظة.

تحتوي هذه الوثيقة المختارة، من بين وثائق أخرى عديدة، وبسبب الترجمة الجزئية، شهادة بينيتو سيرينو؛ وهي أول الشهادات التي أخذت من أجل تلك القضية. وبعض الإفشاءات الواردة فيها قد اعتبرت، في ذلك الحين، مشكوكاً فيها لأسباب تتعلق بالعلم وبالطبيعة. وقد مالت المحكمة إلى الرأي القائل بأن الشاهد، الذي كان مضطرب الذهن بسبب الأحداث الأخيرة، قد هذى ببعض الأمور التي ما كان يمكن لها أن تحدث إطلاقاً. ولكن الشهادات اللاحقة للبحارة، التي أيدت أقوال قبطانهم في الكثير من التفاصيل الأشد مدعاة للاستغراب، قد صادقت على بقية تلك التفاصيل. وهكذا فإن المحكمة في قرارها النهائي، اعتمدت في أحكامها الأساسية على بيانات لو افتقرت إلى الإثبات لاعتبر أنه من الواجب رفضها.

أنا دون خوسيه دي أبوس أند باديللا، الكاتب بالعدل باسم جلالة الملك، لصالح الريع الملكي ولسجل هذه المقاطعة من مقاطعاته، والكاتب بالعدل للحملة الصليبية المقدسة لهذه الأسقفية، إلخ.

أصدق على وأعلن، حسب ما يقتضي به القانون، أنه في الدعوى الجنائية التي بدأ النظر فيها



بتاريخ الرابع والعشرين من شهر أيلول (سبتمبر) من عام ألف وسبع مئة وتسعة وتسعين، ضد زواج سفينة سان دومينيك، فإن الشهادة التالية قد تمّ التصريح بها أمامي:

### شهادة أو شاهد: دون بينيتو سيرينو

في اليوم نفسه والشهر نفسه والعام نفسه، فإن صاحب السعادة الدكتور خوان دي روزاس، مستشار الاجتماعات الملكية في هذه المملكة، والضليع في قانون هذه المقاطعة، قد أمر قبطان سفينة سان دومينيك، دون بينيتو سيرينو، بالحضور؛ ففعل ذلك وهو محمول في محفة، تحت رعاية الراهب إنفيليز. وقد أقسم أمامه بالله وبعلامة الصليب؛ متعهداً بأن يقول الحقيقة فيما يخص كل ما يعرفه وكل ما يُسأل بصدده... وبما أنه قد تمّ استجوابه على النحو السليم حول مغزى الموضوع، فقد قال إنه في العشرين من شهر أيار (مايو) الماضي، أبحر بسفينته من ميناء فالبارايرو، متجهاً إلى ميناء كالاو؛ محملاً بغلال من ذلك البلد بالإضافة إلى ثلاثين صندوقاً من الخردة ومئة وستين زنجياً، من كلا الجنسين وهم يخصون في أغلبهم دون ألخندرو أراندا، وهو سيد من مندوزا. وقال إن طاقم السفينة كان مؤلفاً من ستة وثلاثين رجلاً، إضافة إلى أشخاص هم عبارة عن مسافرين. وأن الزوج كانوا إلى حدّ ما كما يلي:

(هنا، في الأصل، كانت ترد لائحة بخمسين اسماً، مع الأوصاف والأعمار، وقد جمعت من وثائق تمّ استردادها من أراندا، وأيضاً مما تذكره الشاهد، ولم يتمّ اقتطاف سوى أجزاء منها).

... كان أحدهم، وهو في حوالي الثامنة أو التاسعة عشرة من عمره، واسمه خوسيه، وكان هذا هو الشخص الذي يخدم سيده، دون ألخندرو، ويتقن اللغة الإسبانية، فقد سبق له وخدمه منذ أربع أو خمس سنوات... وكان هناك خلاسي واسمه فرنشكو، المشرف على شؤون القمرة، وهو شخص جيد وذو صوت جميل، فقد كان ينشد في كنائس فالبارايرو، وهو من مواطني مقاطعة بوينس آيرس، ويبلغ من العمر حوالي خمسة وثلاثين عاماً... وهناك زنجي ذكي اسمه داغو، عمل لسنوات كثيرة كحفار قبور لدى الإسبان، وعمره ستة وأربعون عاماً... وهناك أربعة زواج كبار في السنّ ولدوا في أفريقيا، أعمارهم تتراوح بين الستين والسبعين عاماً، ولكنهم ماهرون في سدّ شقوق السفينة، وأسمائهم كما يلي: الأول اسمه موري، وقد قُتل (كما قُتل ابنه واسمه دياميلو)؛ والثاني اسمه ناكتا، والثالث يولا، وقد قُتل هذا أيضاً. والرابع غوفان. وكان هناك أيضاً ستة زواج راشدين تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والخمسة والأربعين عاماً؛ وجميعهم جاهلون وقد ولدوا في منطقة قبائل أشانتي: وأسمائهم هي: ماتيلوكوي، ويان، وليخيه، ومابندا، ويامبايو، وأكيم. وقد قُتل أربعة منهم... وهناك زنجي

قوي البنية اسمه أتوفال، والذي يُفترض أنه كان زعيماً في أفريقيا، وقد كان سيده يغالي في قيمته... وكان هناك زنجي صغير الحجم من السنغال، ولكنه أنفق بعض السنين بين الإسبان، وكان عمره حوالي الثلاثين عاماً، واسم هذا الزنجي هو بابو... وأنه لا يتذكر أسماء الزوج الآخرين، ولكنه ما يزال يتوقع أن يتم إيجاد بقية وثائق دون ألكندرو، وعندها سيتم النظر فيها كلها ثم تحال إلى المحكمة... وكان هناك تسع وثلاثون امرأة وطفلاً من جميع الأعمار.

(انتهى البيان الخاص بالزواج وتتم متابعة الشهادة)

... وأفاد أن كل الزوج كانوا ينامون على ظهر السفينة، كما هو معتاد في مثل هذه الرحلات البحرية، ولم يكن أيّ منهم مقيداً بالسلاسل، لأن مالكهم، صديق القبطان المسمى أراندا، قال له إنهم جميعاً طيبون... وأنه في اليوم السابع بعد مغادرة الميناء، وفي الساعة الثالثة صباحاً، وحين كان جميع الإسبان نائمون باستثناء ضابطين للحراسة هما عريف الملاحين والنجار، خوان روبلز والنجار خوان باوتيستا غاييتي، وكذلك مدير الدفة ومساعدته، تمرد الزوج على نحو مفاجئ، وأصابوا مدير الدفة والنجار بجراح خطيرة، ونجحوا في قتل ثمانية عشر رجلاً من أولئك الذين كانوا نائمين على ظهر السفينة، البعض منهم قُتل بقضبان تستعمل كمخل وببساطات، وآخرون بأن تم رميهم أحياء من فوق جانب المركب، بعد تقييدهم. من بين الإسبان الذين كانوا على ظهر السفينة، أبقوا على سبعة منهم أحياء ومقيدين، على ما يظن، وذلك لإدارة شؤون السفينة، كما أبقوا على ثلاثة أو أربعة آخرين كانوا قد اختبؤوا، وبقوا أحياء. وعلى الرغم من أن الزوج خلال التمرد سيطروا على الكوة التي على ظهر السفينة، فإن ستة أو سبعة من الجرحى مضوا من خلالها إلى القمرة، دون أيّ إعاقة من جهتهم. كما أفاد أنه خلال عملية التمرد، فإن مساعد القبطان وشخصاً آخر لا يتذكر اسمه الآن حاولا الصعود من خلال الكوة، ولكنهما أصيبا بجراح على وجه السرعة، فاضطرا إلى العودة إلى القمرة. كما أفاد الشاهد أنه قرر عند مطلع النهار أن يصعد إلى معبر الدليل، حيث كان الزنجي بابو هو قائد المجموعة، مع أتوفال الذي كان يساعده. وبعد أن تحدث إليهما، فقد نصحهما بالتوقف عن ارتكاب مثل تلك الفظائع، وسألهما في الوقت نفسه عما يريدانه وعمّا ينويان فعله، وعرض عليهما أن يطيع هو بنفسه أوامرهما. ثم أفاد أنهما على الرغم من ذلك فقد رميا في حضوره بثلاثة رجال وهم أحياء ومقيدين من فوق جانب السفينة؛ وأنهما قالوا للشاهد أن يصعد وأنهما لن يقتلاه. وبعد أن صعد إليهما، سأله الزنجي بابو ما إذا كانت في تلك البحار أيّ بلاد زنجية يمكن لهم أن يمضوا إليها، فأجابهم بأن كلاً. ثم إن الزنجي بابو قال له لاحقاً إن عليه أن يمضي بهم إلى السنغال، أو إلى الجزر المجاورة لها المسماة جزر سانت نيقولاس؛

فأجابه بأن هذا مستحيل، بسبب المسافة الكبيرة التي تفصلهم عنها، وأن الضرورة تحتم عليهم الالتفاف من حول رأس القرن، وكذلك بسبب الوضع الرديء للسفينة والعوز في المؤن وحالة الأشربة والحاجة إلى الماء العذب. إلا أن الزنجي بابو قال له إن عليه أن يمضي بهم إلى هناك على أي حال، وإنهم سيقومون ويلتزمون بكل ما يطلبه الشاهد منهم من حيث الطعام والشراب؛ وإنه بعد حوار مطول اضطر إلى إرضائهم إذ هددوا بقتل جميع الرجال البيض البشرة إذا لم يتم نقلهم إلى السنغال على أي حال من الأحوال. وقد قال لهم إن ما ينقصهم أكثر من أي شيء آخر من أجل هذه الرحلة هو الماء العذب؛ وإن عليهم الاقتراب من الشاطئ للحصول عليه، وبعدها سينطلقون في طريقهم. كما أفاد أن الزنجي بابو وافق على ذلك. وبعد ذلك قام الشاهد بتوجيه السفينة نحو الموانئ المتوسطة على أمل أن يصادف بعض السفن الإسبانية أو الأجنبية التي يمكن لها أن تتقدمهم. وقال إنه خلال عشرة أو أحد عشر يوماً شاهد اليابسة، وتابعوا الإبحار قرب ناسكا. وقال الشاهد إنه لاحظ أن الزوج كانوا الآن قلقين واثارين لأنه لم يفلح في إيصالهم إلى الماء العذب، لذا طلب الزنجي بابو، مع التهديد، بأن ذلك يجب أن يتم حتماً في اليوم التالي. وقد قال لهم إنه يرى بجلاء أن الشاطئ كان منحدرًا، وأن الأنهار المذكورة في الخرائط لم تكن موجودة في هذا المكان؛ بالإضافة إلى أسباب أخرى ملائمة لتلك الظروف. وقال لهم إن أفضل الحلول هو الوصول إلى جزيرة سانتا ماريا حيث يمكن لهم أن يجدوا الماء العذب هناك بسهولة، فهي جزيرة معزولة. وأفاد الشاهد أنه لم يمض بهم إلى بيسكو التي كانت قريبة منهم، كما لم يحاول الاقتراب من أي ميناء آخر من موانئ الشاطئ لأن الزنجي بابو قد هدده بأنه سيقتل جميع الرجال البيض البشرة في اللحظة التي سيرى فيها أي مدينة أو بلدة أو مستوطنة من أي نوع على الشواطئ التي سيصلونها؛ وأن الشاهد كان قد قرر الذهاب إلى جزيرة سانتا ماريا، كما سبق له وخطط لذلك، وبغرض محاولة المرور قرب الجزيرة حيث يمكن أن يجدوا أي سفينة يمكن أن تكون ملائمة له، أو حيث يمكن أن ينجو بواسطتها في زورق إلى شاطئ أروكو المجاور، فتبني الوسائل الضرورية وغير المسار فوراً باتجاه الجزيرة. وأفاد أن الزنجيين بابو وأتوفال كانا يعقدان اجتماعات يومية كانا يناقشان فيها ما هو ضروري من أجل خطتهما الرامية إلى العودة بهم إلى السنغال، وهل كان عليهما قتل جميع الإسبان، وخاصة الشاهد، وأنه بعد ثمانية أيام من مغادرة شاطئ ناسكا، كان الشاهد يراقب ما يجري بعد بزوغ الفجر، وسرعان ما عقد الزوج اجتماعهم، ووصل الزنجي بابو إلى المكان الذي كان فيه الشاهد، وقال له إنه قد قرر قتل سيده، دون ألخندرو أراندا، وذلك لسببين: فهو ورفاقه لا يمكن لهم أن يتأكدوا من

حصولهم على حريتهم، وكذلك لجعل البحارة يبقون في حالة من الخضوع، وأنه يريد إعطاء تحذير يفيد بالسلوك الذي سيتخذه لو حاولوا هم أو أيّ واحد منهم أن يعارضوه. وبالتالي فإنهم بقتل دون أَلخندرو سيكون التحذير قد أُعطي على أفضل نحو ممكن. ولكن الشاهد، كما أفاد، لم يفهم في ذلك الحين ولم يستطع أن يفهم سوى أن موت دون أَلخندرو كان قد تقرر. وإضافة إلى ذلك، اقترح الزنجي بابو على الشاهد أن يدعو مساعده المسمى راندس الذي كان نائماً في القمرة، قبل القيام بذلك الأمر، خشية أن يُقتل المساعد، كما فهم الشاهد الأمر، وهو الذي كان نوتياً ماهراً، مع دون أَلخندرو والبقية؛ وأن الشاهد، وهو صديق لدون أَلخندرو منذ يفاعتهما، قد توسل وناشد دون طائل الحفاظ على حياة صديقه، فقد أجابه الزنجي بابو بأنه لا يمكن تلافي ذلك الأمر، وأن جميع الإسبان يخاطرون بحياتهم إذا ما حاولوا أن يمنعوه من تنفيذ إرادته في هذا الخصوص أو في أيّ أمر آخر. وأفاد الشاهد أنه خلال هذا النزاع، استدعى المساعد راندس الذي كان قد أُجبر على الانفصال عنه، وسرعان ما أمر الزنجي بابو الأشانتي مارتينيك والأشانتي لسبي بأن يمضيا ليرتكبا جريمة القتل. وقال إن هذين قد هبطا وهما يحملان البلطات إلى مضجع دون أَلخندرو. وأفاد أنها سحبا وهو نصف حيٍّ وممثلٌ به فوق ظهر السفينة، وأنها كانا سيرميان به من فوق جانب السفينة وهو في تلك الحالة، ولكن الزنجي بابو أوقفهما، وأمر بإتمام القتل فوق ظهر السفينة أمام ناظره وقد تمّ ذلك. وبعدها، وبناء على أوامره سحب الجثمان إلى الأسفل وإلى المقدمة. وأفاد الشاهد أنه لم يرَ الجثمان بعد ذلك لمدة ثلاثة أيام... وأن دون ألونزو سيدونيا، وهو رجل عجوز، ومن سكان فالبارايزو منذ زمن طويل، وقد تمّ تعيينه مؤخراً في منصب مدني في البيرو، وكان متجهاً إلى هناك. وقد صدف أن كان في ذلك الحين نائماً في المضجع المقابل لمضجع دون أَلخندرو، فأفاق على صوت صرخاته مندهشاً منها. وحين شاهد الزنجيان ببلطتيهما المدمتين في أيديهما، فقد رمى بنفسه في البحر عبر نافذة كانت قريبة منه، وغرق، دون أن يتمكن الشاهد أن يساعده أو ينتشله من الماء... وأنه حدث بعد وقت قصير من قتل أراندا، أن أحضروا إلى ظهر السفينة قريبه الألماني، وهو رجل في منتصف العمر اسمه دون فرنسكو مازا وهو من مندوزا، وكذلك دون خواكين الشاب، ماركيز دي أرامبوالازا، القادم مؤخراً من إسبانيا، مع خادمه الإسباني بونس والكتبة الشبان الثلاثة التابعين لأراندا، خوسيه موزايري، ولورينزو بارغاس، وهرمنغيلدو غانديخ، وكلهم من قاديخ (قادش). وقد أمر الزنجي بابو، لأهداف عرفت لاحقاً، أن يبقى دون خواكين وهرمنغيلدو غانديخ على قيد الحياة. إلا أنه أمر بأن يرمى دون فرنسيسكو مازا وخوسيه موزايري ولورنزو بارغاس مع بونس الخادم،

إضافة إلى عريف الملاحين خوان روبلس ومساعد عريف الملاحين مانويل فيسكايا ورودريغو هورتا، وأربعة من البحارة، أحياء في البحر، على الرغم من أنهم لم يبدوا أي مقاومة ولا توسلوا أي شيء عدا الرحمة. وأفاد أن عريف الملاحين، خوان روبلس، بما أنه كان يعرف العوم، فقد بقي أطول فترة ممكنة عائماً فوق الماء، وكان يعبر عن ندمه، وفي آخر كلمات نطقها طلب من الشاهد أن يُقام قداس على روحه موجه إلى سيدتنا مريم العذراء عبر أيقونتها المحفوظة في مدينة نيو أورليانز... وأنه خلال الأيام الثلاثة التي تلت فإن الشاهد غير العارف بمصير جثمان دون ألكندرو، كان يسأل تكراراً الزنجي بابو عن مكان وجوده، وهل ما يزال على متن السفينة، وهل سيتم الاحتفاظ به ليُدفن على الشاطئ، ويتوسل إليه أن يأمر بأن يتم القيام بذلك. وأفاد أن الزنجي بابو لم يجبه حتى اليوم الرابع، حين ظهر الشاهد على ظهر السفينة مع شروق الشمس، فأراه الزنجي بابو هيكلاً عظيماً كان قد وضع على مقدم السفينة بدلاً عن التمثال الذي كان موضوعاً هناك، وهو تمثال كريستوفر كولون (هكذا وردت في النص بدلاً عن كريستوف كولومبوس) مكتشف العالم الجديد. وأفاد أن الزنجي بابو سأله من كان صاحب ذلك الهيكل العظمي، وهل يا ترى يوحى بياضه بأنه لشخص أبيض البشرة؟ وأفاد أنه لدى اكتشافه لوجهه، اقترب منه الزنجي بابو وقال له: «ابق مؤمناً بالزواج من هنا إلى السنغال، أو أنك ستلحق بقائدك، روحاً كما بالجسد الآن»، وأشار إلى مقدم السفينة... وأفاد أنه في ذلك الصباح نفسه، فإن الزنجي بابو كان يطلب بالتتابع من كل إسباني أن يتقدم، ويسأله عن صاحب الهيكل العظمي، وفيما إذا لم يكن عليه أن يظن لبياضه أنه لشخص أبيض البشرة. وقال إن كل إسباني كان يغطي وجهه؛ وأن الزنجي بابو كان يكرر هذا الكلام الذي قيل أولاً للشاهد. وأفاد أنهم (أي الإسبان)، كونهم كانوا متجمعين في مؤخر السفينة، فإن الزنجي بابو خطب فيهم قائلاً إنه قد انتهى الآن من فعل كل ما يريده، وأن الشاهد (كملاح للزواج) يمكنه أن يتابع الإبحار، مع تحذيره هو وجميع الإسبان الآخرين بأنهم سيعانون جسداً وروحاً نهايةً كنهاية دون ألكندرو لو سمعهم يتكلمون أو يتآمرون ضدهم (أي الزواج) بأي شكل من الأشكال... وكان هذا التهديد يتكرر كل يوم. كما أفاد أنه قبل حصول الأحداث السابق ذكرها، فقد كانوا قد قيدوا الطباخ من أجل رميه من فوق جانب السفينة، ولم يكن معروفاً ما الذي سمعوه ينطق به، ولكن الزنجي بابو أبقى على حياته أخيراً، بناءً على طلب الشاهد. كما أفاد أنه بعد ذلك بأيام قليلة، فإن الشاهد وهو يحاول ألا يفوت أي فرصة للحفاظ على حياة من تبقى من الرجال البيض البشرة، فقد تحدث إلى الزواج عن السلام والهدوء، ووافق على تحرير ورقة وقعها الشاهد والبحارة ممن يعرفون القراءة والكتابة،

وكذلك الزنجي بابو، نيابة عن نفسه وعن جميع الزوج، والتي ألزم فيها الشاهد نفسه بإيصال الزوج إلى السنغال، وأن عليهم أن يتوقفوا عن القتل؛ كما أنه تعهد رسمياً بتسليمهم السفينة مع شحنتها، وهذا مما جعلهم لأول مرة راضين وهادئين... ولكن في اليوم التالي، فإن الزوج كي يضمنوا عدم هرب البحارة، فقد أمر الزنجي بابو بتدمير جميع الزوارق باستثناء أكبر الزوارق الذي لم يكن في حالة جيدة، وزورق آخر في حالة جيدة، وقد كان الزنجي بابو يعرف أنهم سيحتاجون إليه لتعبئة براميل الماء العذب، فجعلهم ينزلونه إلى عنبر السفينة.

.....

(هناك تفاصيل متنوعة عن عملية الإبحار المطولة والمعقدة الناجمة التي تبعت ذلك، مع أحداث تتصل بسكون البحر المشؤوم، وسوف نورد هنا مقطعاً منها للتوضيح):

... إنه في اليوم الخامس من سكون البحر، وجميع من على متن السفينة يعاني من شدة الحر ونقص الماء العذب، وقد مات خمسة وهم يعانون من نوبات المرض أو الجنون، فأصبح الزوج عصبي المزاج، وبناء على تلميح بالصدفة، وجدوه مثيراً للشك - رغم كونه بريئاً - قام به مساعد الربان، راندس، إلى الشاهد وهو يسلمه أداة الربعية، فقد قاموا بقتله. ولكنهم كانوا سيندمون كثيراً على هذا فيما بعد، فقد كان مساعد الربان هو الملاح الوحيد المتبقي حياً على متن السفينة، باستثناء الشاهد.

.....

... إنه مع التغاضي عن ذكر بعض الأحداث من النوع الذي كان يجري كل يوم، والتي لا يمكن لها أن تفيد سوى في استذكار البلايا والنزاعات، بعد ثلاثة وسبعين يوماً من الإبحار، اعتباراً من موعد انطلاقهم من مرفأ ناسكا، وحيث أبحروا مع القليل من الماء العذب المتاح، كما تعرضوا لسكون البحر المذكور سابقاً، حتى وصلوا أخيراً إلى جزيرة سانتا ماريا في السابع عشر من شهر آب (أغسطس)، وحوالي الساعة السادسة مساءً، وقد ألقوا المرساة في تلك الساعة قرب السفينة الأمريكية (متعة العازب) التي كانت قد رست في ذلك الخليج نفسه، تحت إمرة الكابتن أمازا ديلانو الشهم. ولكن في الساعة السادسة صباحاً، كان قد سبق لهم أن اكتشفوا ما هو موجود في الميناء، وأصبح الزوج قلقين ما إن شاهدوا السفينة وهم لم يكونوا يتوقعون وجود سفينة هناك. وأفاد الشاهد أن الزنجي بابو هدأ من روعهم، وأكد لهم أنه لا حاجة إلى الخوف. وقد أمر على الفور بأن يتم تغطية الهيكل العظمي على مقدم السفينة

بالقماش، كما جعل ظهر السفينة يبدو في حالة منظمة رغم الحاجة إلى إصلاحات. كما أفاد أن الزنجي بابو والزنجي أتوفال تشاورا، ولأن الزنجي أتوفال كان من رأيه أن يبحروا مبتعدين، إلا أن الزنجي بابو رفض ذلك، واقترح ما يتوجب فعله. وأفاد الشاهد أن الزنجي بابو اقترب منه أخيراً واقترح عليه أن يقول ويفعل كل ما يصرح به الشاهد ويفعله للقبطان الأمريكي... وأن الزنجي بابو حذره من أنه لو خالف ذلك بأقل قدر ممكن، أو لو أنه نطق بأي كلمة أو رمى بنظرة يمكن أن تعطي أي تلميح بسيط إلى الأحداث الماضية أو الحالة الحاضرة، فإنه سيقوم على الفور بقتله مع جميع رفاقه، وأظهر له خنجراً كان يحمله وقد أخفاه بين ثيابه، وقال شيئاً ما فهم منه أن الخنجر سيكون يقظاً كعينه. وأفاد أن الزنجي بابو أعلن بعد ذلك الخطة أمام جميع رفاقه وقد وافقوا عليها بسرور. ثم قام للتمويه على الحقيقة باختراع حيل كثيرة، واستطاع بها أن يوحد الخداع مع الدفاع. ومن بين تلك الحيل الأشائتي الستة المذكورون سابقاً والذين هم أشجع رجاله، فجعلهم يقفون باستعداد على السطح المرتفع عند مؤخر السفينة، وكأنهم ينظفون بعض البلطات (وجدت في صناديق كانت جزءاً من الشحنة)، ولكن في الواقع لاستخدامها وتوزيعها عند الحاجة، وعندما يعطيهم كلمة السر المتفق عليها. ومن بين الحيل الأخرى كانت حيلة إظهار أتوفال، وهو اليد اليمنى له، مقيداً بالسلاسل، على الرغم من أنها يمكن أن تنزع عنه خلال برهة؛ وأنه أبلغ الشاهد عن كل تفصيل يتعلق بما يتوقع منه أن يفعله ويقول، وما هي القصة التي سيرويها في كل مناسبة، وهو يهدده على الدوام بالموت الفوري لو أنه خالف التعليمات ولو بالحد الأدنى. وأفاد الشاهد أنه بسبب إدراك الزنجي بابو بأن كثيراً من الزوج قد يشاغبون، فقد عين أربعة زنوج مسنين كانوا يعملون في سد شقوق السفينة، بأن يحافظوا على النظام فوق ظهر السفينة بقدر المستطاع. وأفاد بأن الزنجي بابو خطب مرات كثيرة في الإسبان وفي رفاقه، وأبلغهم بنيته وبحيله، وبالحكاية المختلقة التي سيكون على الشاهد أن يرويها. كما هددهم بالألّا يخالف أي منهم فيروي حكاية مختلفة. وقال إن هذه الترتيبات قد تمت وأنضجت خلال فترة ساعتين إلى ثلاث ساعات، بين أول مرة شاهدوا فيها السفينة ووصول الكابتن أمازا ديلاانو إلى متن السفينة؛ وإن هذا جرى حوالي الساعة السابعة والنصف صباحاً، وإن الكابتن أمازا ديلاانو سيصل في زورقه وإنهم سوف يستقبلونه بسرور جميعهم. كما أفاد الشاهد أنه تصرف بقدر ما استطاع أن يجبر نفسه، على لعب دور المالك الرئيس، وأنه قبطان السفينة بلا منازع. وقد قال للكابتن أمازا ديلاانو حين قابله إنه جاء من بوينس آيرس وهو في طريقه إلى ليما، مع ثلاث مئة زنجي؛ وإنهم حين عبروا رأس القرن، حلّ بهم الوباء فمات الكثير من الزنوج، وإن جميع الضباط

البحريين ومعظم أفراد الطاقم قد توفوا.

....

(وهكذا تستمر الشهادة في سرد الحكاية المختلقة التي أملاها بابو على الشاهد، وتمّ إملاؤها على الكابتن ديLANO من قبل الشاهد؛ كما ذكر الشاهد العروض الكريمة للكابتن ديLANO وأموراً أخرى، ولكننا نحذفها هنا. وبعد الحكاية الخيالية، إلخ، يتابع الشاهد كلامه):

.....

ولكن الكابتن أمازا ديLANO الكريم بقي على متن السفينة طوال النهار، حتى غادرها بعد أن رمت مرساتها في الساعة السادسة مساءً، والشاهد يخاطبه على الدوام عن سوء الحظ الذي ابتلوا به، وفق المبادئ السابقة الذكر، دون أن يتمكن من أن يتلفظ بكلمة واحدة أو يعطي إشارة واحدة يمكن أن تكشف حقيقة الأمر، لأن الزنجي بابو، الذي كان يؤدي وظيفة الخادم الحريص على راحة سيده مع كل مظاهر الخضوع للخادم الذليل، ودون أن يترك الشاهد وحيداً ولو لبرهة واحدة. وقد جرى ذلك لمراقبة أفعال وكلمات الشاهد، فالزنجي بابو يفهم اللغة الإسبانية جيداً، وإضافة إلى ذلك، فقد كان هناك باستمرار آخرون ممن يراقبون على الدوام، ويفهمون الإسبانية أيضاً... وفي إحدى المناسبات، وبينما كان الشاهد واقفاً على ظهر السفينة، وهو يتحدث إلى أمازا ديLANO، وبإشارة سرية قام الزنجي بابو بأخذه (أي للشاهد) جانباً، على أن يبدو الأمر وكأن الشاهد هو الراغب. وحين جذبه جانباً طلب الزنجي بابو من الشاهد أن يجعل أمازا ديLANO يعطيه تفاصيل كاملة عن سفينته وطاقمه وأسلحته. وقد سأل الشاهد: «وما القصد من ذلك؟» فأجابه الزنجي بابو بأنه يريد أن يعرف. وأفاد الشاهد أنه لخشيته مما قد يحلّ بمصير الكابتن أمازا ديLANO الكريم، فقد رفض في البداية أن يطرح الأسئلة المطلوبة، واستخدم كل حجة ممكنة لحثّ الزنجي بابو على التخلّي عن مكيدته الجديدة، إلا أن الزنجي بابو أراه رأس خنجره، وأنه بعد الحصول على المعلومات قام الزنجي بابو مجدداً بالانفراد به ليقول له إنه (أي الشاهد) سيصبح في تلك الليلة قبطاناً لسفینتين بدلاً من واحدة، حيث إن الجزء الأكبر من طاقم السفينة الأمريكية سيكونون غائبين من أجل الصيد، وإن الرجال الستة من الأشانتي دون أحد غيرهم، سيستولون بسهولة على السفينة الأخرى. وقد قال في ذلك الحين أشياء أخرى تتعلق بالهدف نفسه؛ وإنه لا جدوى من التوسلات؛ وإنه قبل صعود أمازا ديLANO إلى ظهر السفينة، لم يكن هناك أيّ تلميح حول الاستيلاء على السفينة الأمريكية؛ وإنه لم يكن لدى الشاهد أيّ حيلة لمنع تنفيذ تلك



الخطة... وأفاد الشاهد أن ذاكرته مشوشة فيما يخص بعض الأمور، فهو لا يتذكر كل ما جرى من أحداث... وأنهم بعد أن رموا بالمرساة في الساعة السادسة مساءً، كما ذكر من قبل، استأذن القبطان الأمريكي بالانصراف ليعود إلى سفينته؛ وأفاد الشاهد أن دافعاً مفاجئاً يعتقد هو أنه أتى من الرب وملائكته، فقد قام هو بعد الوداع باللحاق بالكابتن أمازا ديLANO الكريم حتى الحافة العليا من جانب السفينة، حيث تلبث بحجة توديع أمازا ديLANO ريثما يهبط إلى زورقه ويستقر فيه، وأنه قفز من حافة السفينة إلى الزورق، ولا يعرف كيف حصل ذلك، إلا أن الرب كان يحرسه؛ وأنه...

.....

(هنا، في النص الأصلي، هناك متابعة لما حدث بعد ذلك خلال الهروب، وكيف أن سان دومينيك قد تم الاستيلاء عليها، وعن وصولهم إلى الشاطئ، بما في ذلك ذكر تعابير مثل «الامتنان الأبدي» لـ «الكابتن أمازا ديLANO الكريم». ثم تتطرق الشهادة بملاحظات موجزة وبتعداد جزئي للزواج مع ذكر أدوارهم الفردية في الأحداث الماضية، مع تقديم معطيات للمحكمة تتعلق بالأحكام الجزائية التي ستصدر. ومن هذا الجزء من الشهادة سنذكر ما يلي):

... لقد أفاد أنه يعتقد أن جميع الزوج، وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا عارفين في البدء بمكيدة التمرد، إلا أنهم وافقوا عليها حين أنجزت... وأن الزنجي خوسيه، وهو في سن الثامنة عشرة، وكان يعمل كخادم شخصي لدون ألخندرو، كان الشخص الذي يبلغ المعلومات إلى الزنجي بابو حول ما يجري في قمرة القبطان، قبل حصول التمرد. وقد تمت معرفة هذا الأمر لأنه اعتاد في منتصف الليلة السابقة أن يخرج من مضجعه الذي كان في أسفل مضجع سيده، في القمرة، ويتجه إلى ظهر السفينة حيث كان زعيم التمرد ومساعدوه، وكان يعقد حوارات سرية مع الزنجي بابو، وقد شوهد مرات عديدة وهو يفعل ذلك من قبل مساعد القبطان. وأنه في إحدى الليالي طرده مساعد القبطان مرتين... وأن هذا الزنجي خوسيه نفسه هو الذي طعن سيده دون أن يتلقى أمراً بذلك من قبل الزنجي بابو، كما جرى مع لكبي ومارتينكوي. وبعد أن تم جرّ دون ألخندرو وهو نصف ميت إلى ظهر السفينة... فإن فرنشكو، الخلاسي المسؤول عن تدبير شؤون الطعام، كان من بين أول عصابة من عصابات المتمردين، وأنه كان، بين أمور أخرى، دمية وأداة في يد الزنجي بابو، وقد قام بتسميم طبق طعام الكابتن أمازا ديLANO الكريم. وهذا أمر معروف وقابل للتصديق، لأن الزوج أبلغوا عنه. ولكن الزنجي بابو، بعد أن خطط لمكيدة أخرى، منع فرنشكو من تنفيذ هذه المكيدة... وأفاد أن الأثانتي المدعو

لكبي كان واحداً من الأسوأ بينهم، فهو قد ساعد في يوم إعادة الاستيلاء على السفينة في الدفاع عنها، وهو يمسك ببلطة في كل يد من يديه، وقد جرح بإحداهما كبير مساعدي أمازا ديلاانو، في بداية صعود البحارة إلى متن السفينة. وأفاد أنه تحت نظر الشاهد قام لكبي بضرب دون فرنشكو مازا ببلطته، وذلك حين كان يحمله بأمر صادر عن الزنجي بابو ليرميهِ من فوق جانب السفينة وهو حيّ؛ كما أنه شارك في جريمة قتل دون أَلخندرو أراندا التي ذكرت سابقاً، وقتل آخرين من ركاب السفينة الذين كانوا مجرد مسافرين عليها. كما أفاد أنه على الرغم من الضراوة التي قاتل بها أعضاء قبيلة الأشانتي خلال المعركة مع بحارة الزوارق، إلا لكبي ويان بقيا حيّين. وقال إن يان شرير بقدر لكبي، وإن يان كان الرجل الذي حضر طوعاً، تحت قيادة بابو، الهيكل العظمي لدون أَلخندرو بأسلوب علم به من خلال ما قاله الزوج للشاهد لاحقاً، ولكنه لن يفشي ذلك طالما بقي له صواب. كما أفاد أن يان ولكبي كانا الشخصين اللذين ثبتا بالبراشيم، في سكون الليل، الهيكل العظمي على مقدم السفينة. وهذا ما قاله له الزوج أيضاً. كما قال إن الزنجي بابو هو الذي خطّ الكتابة التي كانت تحت الهيكل العظمي، وإن الزنجي بابو كان هو من خطط للأمر كلّهُ من البداية إلى النهاية؛ وقد أمر بتنفيذ كل جريمة قتل، وكان الزعيم الفعلي للتمرد. وأفاد أن أتوفال كان شريكاً له في كل شيء؛ إلا أن أتوفال، لم يرتكب بيده أيّ جريمة قتل وكذلك الزنجي بابو... وأفاد أن أتوفال أصيب بالرصاص وقُتل في المعركة التي جرت مع بحارة الزوارق، قبل صعود هؤلاء إلى ظهر السفينة... وأن الزنجيات الراشديات، كن يعرفن بشأن التمرد، وقد شهدن بأنفسهن على أنهن سررن لمقتل سيدهن، دون أَلخندرو؛ وأنه لولا أن الزوج منعهن، لكنّ سيعذبن الإسبان حتى الموت، بدلاً عن قتلهم ببساطة كما أمر الزنجي بابو. وأفاد أن الزنجيات بذلن جلّ ما لديهن من نفوذ حتى يتمّ التخلص من الشاهد؛ وأنه خلال عمليات القتل المتعددة، كن يغنين ويرقصن... ليس بمرح، بل بوقار. وقبل الاشتباك مع بحارة الزوارق، وكذلك خلال الاشتباكات، كن ينشدن أغاني حزينة للزوج، وأن هذه الألحان الحزينة كانت أكثر إثارة للحماسة من الألحان المختلفة الأخرى، وأن أداءها كان متعمداً. وأفاد أن هذا كلّهُ مصدق لأن الزوج اعترفوا به. وقال إنه من بين رجال الطاقم الستة والثلاثين - باستثناء المسافرين (وهؤلاء كان مصيرهم جميعاً الموت) - والذين يعرف الشاهد بأمرهم، بقي ستة فقط على قيد الحياة، مع أربعة فتية ممن يعملون في القمرات ومن أولئك الذين هم من خدم السفينة من الفتية، وهؤلاء لا يدخلون ضمن تعداد أعضاء الطاقم... وأفاد أن الزوج كسروا ذراع أحد الفتية من العاملين في القمرات وضربوه بالبلطات.

ثم ترد إفشاءات متعددة تشير إلى مختلف الأوقات. ونورد فيما يلي بعض المقتطفات منها):

... أفاد أنه خلال وجود الكابتن أمازا ديلانو فوق متن السفينة، فقد جرت بعض المحاولات من قبل البحارة، ومحاولة من قبل هرمنغيلدو غانديخ، لتوصيل إشارة إليه عن الوضع الفعلي لما يجري على السفينة، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل، بسبب الخوف من القتل؛ وإضافة إلى ذلك، بسبب كرم وورع أمازا ديلانو غير القادر على تخيل مثل ذلك الشر... وإن لويس غالغو، وهو بحار في الستين من العمر، وقد سبق له وخدم في البحرية الملكية، كان واحداً من أولئك الذين أرادوا أن يوصلوا إشارات إلى الكابتن أمازا ديلانو، ولكن بسبب نيته هذه، وعلى الرغم من أنها لم تصل إلى غرضها، فقد تمّ جعله يتوارى عن الأنظار، ثم وضع في عنبر السفينة، وهناك تمّ التخلص منه. وقد أفاد الزوج بذلك... وأن واحداً من الخدم الفتيان والذي شعر من خلال وجود الكابتن أمازا ديلانو بأن هناك بعض الأمل في النجاة، ولم يكن يتحلّى بما يكفي من الحذر، فقد تلفّظ ببعض الكلمات التي تتعلق بآماله، وقد وصلت إلى أسماع الزوج وفهمها أحد العبيد من صغار السن الذي كان يتناول معه الطعام في ذلك الحين، فضربه هذا الأخير بسكين على رأسه مما تسبب له بجرح بليغ - ولكن الفتى يتعافى الآن من هذا الجرح. وأفاد أنه حدث على نحو مشابه وليس قبل وقت طويل من رسوّ السفينة، أن أحد البحارة، وكان يوجّه الدفة في ذلك الحين، قد عرض نفسه للخطر حين سمح للزوج بأن يتلفظوا بتعبير ما يتعلق بوجهه، مستوحى من سبب مشابه لما ورد أعلاه؛ ولكن هذا البحار نجح بأسلوبه الحذر لاحقاً... وعلى نحو مشابه لما ورد ذكره أعلاه، ويسلوكة الحذر، فقد نجح... وإن هذه البيانات تُقدم لتظهر للمحكمة من بداية التمرد إلى نهايته، أنه كان من المستحيل على الشاهد ورجاله أن يتصرفوا خلاف ما فعلوا... وأفاد أن محاسب السفينة، هرمنغيلدو غانديخ، والذي سبق له واضطر للعيش بين البحارة وهو يرتدي ملابس البحارة، ويبدو من كل النواحي كواحد منهم طوال الوقت، قد قُتل برصاصة من غدارة خطأ حين رمت الزوارق السفينة بالنار قبل الصعود إلى ظهر السفينة؛ فقد هرع، لشدة خوفه، ليركض على امتداد الصاري، وهو يصرخ على الزوارق... قائلاً لهم: «لا تصعدوا إلى ظهر السفينة»، وذلك لخوفه أن يقتله الزوج خلال صعود بحارة الزوارق إلى ظهر السفينة. وكان هذا ما حضّر الأمريكيين على الاعتقاد بأنه كان مؤيداً نوعاً ما لقضية الزوج، فأطلقوا النار عليه مرتين، فسقط جريحاً من فوق الصاري، وغرق في البحر... وأفاد الشاهد أن دون خواكين الشاب، وهو ماركيز دي أرامبوالازا، قد اضطر شأن هرمنغيلدو غانديخ إلى أن يتخفى بزيّ بحار

عادي، وأنه حدث في إحدى المناسبات حين أجفل دون خواكين لاشمئزازه من أمر ما... فإن الزنجي بابو أمر الأثانتي لكبي أن يأخذ قاراً ويسخنه، ثم يصبه على يدي دون خواكين... وقد قُتل دون خواكين بسبب خطأ آخر ارتكبه الأمريكيون، ولكن كان خطأ من النوع الذي يستحيل تجنبه، فعندما اقتربت الزوارق من السفينة، فإن دون خواكين وقد قُيدت بلطة إلى يده، قد جعله الزوج يظهر فوق جانب السفينة، وفي يديه سلاح وفي وضع مشير للشك، فأطلقوا عليه النار كبحار مرتد... وقد وجدت على جثة خواكين جوهرة تبين أنه كان ينوي تقديمها - حسب الوثائق التي اكتشفت، إلى ضريح «سيدة الرحمة» في ليما. وكانت هذه التقدمة نوعاً من النذور سبق وتمّ التحضير له تعبيراً لامتنانه وذلك حين كانت السفينة سترسو به في البيرو، وهي آخر مقصد له بعد رحلته الطويلة من إسبانيا... وأفاد أن الجوهرة مع الممتلكات المنقولة الأخرى لدون خواكين الفقيد قد وضعت تحت رعاية أخوة مستشفى دي ساكردوت، بانتظار قرار المحكمة الموقرة... وأفيد أنه بسبب الوضع الصحي للشاهد، وكذلك السرعة التي غادرت بها الزوارق للهجوم على السفينة، فإن الأمريكيين لم يحدث أن أبلغوا مسبقاً بأن من بين أفراد الطاقم العادي، أن هناك مسافراً ومحاسباً قد تنكراً بناء على طلب الزنجي بابو... وأنه بالإضافة إلى الزوج الذين قتلوا خلال العملية، فقد قتل بعضهم بعد الاستيلاء على السفينة وإعادة إرسائها في الليل، وذلك وهم مقيدون إلى حلقات الحديد فوق متن السفينة. وعمليات القتل هذه ارتكبتها البحارة قبل أن يتمّ منعهم. وأن الكابتن أمازو ديلاانو ما إن نُمي إليه ذلك حتى استخدم كل ما لديه من سلطة، وأنه قام شخصياً بضرب مارتينيث غولا، الذي وجد موسى في جيب سترة قديمة له كان يرتديها الزنجي المقيد، وكان يصوبها إلى حنجرة هذا الزنجي. وأفيد أن الكابتن أمازو ديلاانو النبيل انتزع من يد بارتولوميو بارلو خنجراً، كان قد خبئ خلال المجزرة التي ارتكبت ضد البيض، وكان على وشك أن يطعن به زنجياً مقيداً كان قد قام هو وزنجي آخر برمييه أرضاً والانقضاض عليه... وأفاد أيضاً أنه خلال تلك الأحداث التي جرت خلال فترة طويلة من الزمن، والتي كانت السفينة خلالها مستولى عليها من قبل الزنجي بابو، فهو لا يستطيع أن يعطي المزيد من المعلومات، وأنه قد قدم أهم الأمور التي جرت مؤخراً، وأن ما أفاد به هو الحقيقة وتحت القسم الذي أداه. وقد أكد تصريحه هذا وصادق عليه بعد أن سمعه يُتلى عليه.

قال إنه في التاسعة والعشرين من العمر، وإنه منهك جسداً وذهناً، وحين صرفته المحكمة أخيراً، فهو لن يعود إلى تشيلي، موطنه، بل سيذهب إلى دير على جبل أغونيا. ثم وقّع ورسم على نفسه إشارة الصليب، وغادر كما وصل، في محفّته، مع الراهب إنفيليز، في طريقهما إلى

## بينيتو سيرينو

- شارل الخامس: (1500 - 1978) كان ملكاً لإسبانيا والإمبراطور الروماني المقدس، وقد تنازل عن العرش لصالح ابنه الملك فيليب الثاني والتحق بأحد الأديرة. (المترجم)
- أشانتي: مملكة في غرب أفريقيا (1670 - 1957). (المترجم)
- لديارد: (1751 - 1789) مستكشف ومغامر أمريكي توفي في مصر. (المترجم)
- عقدة غوردية: نسبة إلى غوردبوس ملك فريجيا القديم الذي عقد عقدة وقال إن من يفكها سيحكم آسيا، وقد قام الإسكندر المقدوني بقصّها بدلاً من فكّها. (المترجم)
- غاي فوكس (1570 - 1606) وهو واحد من كبار المتورطين في محاولة تفجير مبنى البرلمان الإنكليزي عام (1605) في مؤامرة فاشلة للكاثوليكين. (المترجم)
- جونسون، صامويل (1709 - 1784) شاعر وكاتب وناقد إنكليزي وضع أول قاموس للغة الإنكليزية. (المترجم)
- بايرون، (1788 - 1824) شاعر إنكليزي شهير حارب مع اليونانيين ضد العثمانيين. (المترجم)
- كاناري: زجاجة كانت تستخدم لحفظ الماء العذب. (المترجم)
- دبلون: عملة ذهبية إسبانية بوزن 7 غرامات تقريباً. (المترجم)
- برستون بانز: معركة جرت عام (1745) بين جيشين متخصصين من الإنكليز. (المترجم)



## الدكتور روزاس

لو كانت الشهادة قد لعبت دور المفتاح الذي يلائم قفل التعقيدات التي سبقتها، فإن عنبر سان دومينيك أصبح مفتوحاً اليوم شأن باب سرداب تمّ اختراقه.

حتى الآن فإن طبيعة هذه الحكاية، إضافة إلى جعلها التعقيدات في البداية لا يمكن تجنبها، قد تطلّبت تقريباً أن تقدم أشياء كثيرة، بدلاً عن ترتيب حدوثها، بشكل استعادي أو غير منتظم. وهذه هي الحال فيما يخصّ المقاطع التالية التي ستكون خاتمة للحكاية.

خلال الرحلة البحرية الطويلة اللطيفة إلى ليما، كان هناك، كما ألمحنا سابقاً، فترة جرى خلالها أن استعاد المريض المعاني قليلاً من صحته، أو على الأقل إلى درجة ما، كما استعاد هدوءه. قبل هذا كان للقبطانيين الكثير من المحادثات الودية... لقد تباينت صراحتهما الأخوية تبايناً فريداً مع ما سبق من جفاء.

وقد جرى بينهما الحديث مراراً وتكراراً عن مدى صعوبة الدور الذي اضطر الإسباني إلى لعبه كما فرضه بابو عليه.

قال دون بينيتو ذات مرة: «آه يا صديقي العزيز، في تلك الأوقات بالذات حين حسبتي شخصاً نكد المزاج وغير شاعر بالامتنان، بل حتى إنك ظننت - كما تعترف لي الآن - بأني أخطط لقتلك في ذلك الوقت بالذات حين كان قلبي متجمداً حتى الصقيع. ما كنت قادراً على النظر إليك، وأنا أفكر في الأخطار المحدقة بك على سفينتي وسفينتك وأنت المحسن الكريم. وأشهد بالله الحيّ، يا دون أمازا، أنني لا أعرف ما إذا كانت سلامتي الشخصية وحدها هي التي شجعتني على القيام بتلك القفزة إلى زورقك، لولا تلك الفكرة بأنك كنت ستعود إلى سفينتك أنت ومن معك، جاهلين بأنكم ما كنتم ستستيقظون مرة أخرى من أراجيحكم الشبكية في تلك الليلة، ولن تستيقظوا أبداً مرة أخرى في هذا العالم. فكّر كيف سرت أنت على متن السفينة فحسب، وكيف جلست في هذه القمرة، وكل بوصة من أرضيتها مترعة بالخطر من تحتك. لو أنني أبدت أيّ أمارة أو أحرزت أيّ تفاهم بيننا، لكان الموت - الموت المتفجر - سينهي المشهد.

صاح الكابتن ديLANO مجفلاً: «صحيح، صحيح! لقد أنقذت حياتي يا دون بينيتو، أكثر مما أنقذت أنا حياتك. لقد أنقذتها أيضاً ضد معرفتي وإرادتي.»

أجابه الإسباني بلهجة دمثة حتى درجة الترهّب: «لقد حفظ الله حياتك، إلا أنك أنقذت حياتي. وحين أفكر في الأمور التي قمتَ بها - تلك الابتسامات والثرثرات والإيماءات والتلميحات المتهورة. وهم قد ذبحوا مساعدي المسمى راندس لأقل من ذلك. ولكن كان معك أمير السماء خلال جميع الكمائن التي مررت بها».

«أجل، كل ذلك بفضل العناية الإلهية، وأنا أعرف ذلك: ولكن مزاجي في ذلك الصباح كان أكثر من مجرد مزاج سارٍ، بينما راح مشهد المعاناة الشديدة الأكثر وضوحاً مما هو حقيقي، يعزز من مزاجي الجيد وتعاطفي وإحساني، وتشابكت هذه الأمور الثلاثة معاً وعلى نحو مبهج. ولو كان الأمر خلاف ذلك، فلا شك، كما ألمحت أنت، إلى أن بعض تدخلاتي ربما كانت ستنتهي على نحو غير سارٍ إلى حدّ كافٍ. وإضافة إلى ذلك، فإن تلك المشاعر التي عبرت عنها مكنتني من التغلب على الشك اللحظي، وأحياناً كانت الحدة ستكلفني حياتي، دون أن أنقذ حياة أخرى. ولكن في النهاية تغلبت عليّ شكوكي، وأنت تعرف إلى أيّ حدّ غالوا في تصرفاتهم».

قال دون بينيتو بحزن: «كثيراً بالفعل. لقد كنت معي طوال اليوم؛ وقفت معي، وجلست معي، وتحدثت إليّ، ونظرت إليّ، وأكلت معي، وشربت معي، ومع ذلك، فإن عمك الأخير كان القبض على وحش، ليس مجرد إنسان بريء، بل على رجل شديد الإثارة للشفقة. إلى هذه الدرجة يمكن للمكائد والخدع الشريرة أن تفرض علينا ما لا يطاق، إلى حدّ أن أفضل الرجال قد يخطئ في حكمه على سلوك شخص لا يعرف أعماق سلوكه. ولكنك كنت مضطراً إلى ذلك. وقد كنت قد تحررت من الوهم في الوقت المناسب. وأتمنى لو كان كل الرجال مثلك في كلتا الحالتين».

«أنت تعمّم يا دون بينيتو، وعلى نحو حزين بما فيه الكفاية. ولكن الماضي قد مضى. لماذا تريد أن تستخلص عبراً أخلاقية منه؟ عليك أن تنساه. انظر، ها هي شمسة المشرقة قد نسيت كل شيء، والبحر الأزرق، والسماء الزرقاء؛ هذان قد قلبا صفحات جديدة».

أجاب بعزيمة واهنة: «لأنهما دون ذاكرة، ولأنهما ليسا بشريين».

«ولكن هذه النسائم اللطيفة التي تروّح وجنتك الآن ألا تأتي بشفاء إنساني لك؟ الأصدقاء الحميمون، والأصدقاء الراسخون هم النسائم الدافئة».

«برسوخهم يدفعونني نحو قبوري يا سينيور»، هكذا كانت الإجابة المنذرة بالشرّ.



صاح الكابتن ديLANو وهو يشعر بالمزيد ثم المزيد من الدهشة والألم: «لقد نجوت. لقد نجوت. ما الذي يجعلك تشعر بكل هذا اليأس؟».

«الزنجي».

ساد الصمت، بينما كان الرجل الكئيب جالساً، وهو يجمع ببطء ودون وعي عباءته من حوله، وكأنها غطاء نعش.

ولم يجر أي حوار آخر بينهما في ذلك اليوم.

ولكن لو كانت كآبة الإسباني تنتهي أحياناً بالصمت فيما يخصّ مواضيع شأن ما ورد أعلاه، فقد كانت هناك مواضيع لم يتطرق إليها قط؛ وبالفعل فإن كل تحفظاته القديمة كانت متراكمة. هيّا تجاوز ما هو الأسوأ، وحتى توضح فحسب فاذاً ببدأ أو اثنين من هذه. حتى ثيابه الدقيقة الصنع والشمينة، والتي كان يرتديها في اليوم الذي أوردنا تفاصيله، لم يعد يرغب في ارتدائها. أما ذلك السيف المطلي بالفضة، الرمز الجلي للقيادة الاستبدادية، فلم يكن بالفعل سيفاً، بل شبحاً لسيف. كان الغمد، الذي تمّت تقسيته بشكل مصطنع، فارغاً.

أما فيما يخصّ الزنجي... الذي كان دماغه وليس جسده هو الذي قاد التمرد، فإن جسده الضئيل غير الملائم للدماغ الذي يحمله، استسلم فوراً للقوة العضلية المتفوقة لآسره في الزورق. فبعد أن رأى أن كل شيء قد انتهى، لم يصدر عنه أي صوت، ولم يستطيعوا إجباره على الكلام. كان مظهره يبدو وكأنه يقول: بما أنني لا أستطيع القيام بالأفعال، فلن أنطق بالكلمات. قيده بالحديد ووضعه في عنب السفينة مع البقية، وحمل إلى ليما. خلال الرحلة، لم يبق دون بينيتو بزيارته. وهو لم يوجّه نظره إليه لا في ذلك الحين ولا فيما بعد. أمام المحكمة رفض الكلام. وحين ضغط عليه القضاة أصيب بالإغماء. وقد تمّ تحديد الوضع القانوني لبابو من خلال شهادات البحارة.

بعد أشهر من ذلك، تمّ جرّ ذلك الزنجي إلى المشنقة مربوطاً إلى ذيل بغل وهناك عرف نهايته بصمت. تمّ حرق جثته حتى تحولت إلى رماد. ولكن بقي رأسه، خلية المكر تلك، معلقاً على عمود في الساحة، يواجه دون خجل تحديق الأشخاص البيض البشرة. وعبر الساحة كان الرأس ينظر إلى كنيسة سانت بارتولوميو، حيث كانت ترقد في مدفنها تحت الأرض في حينه وحتى الآن، العظام المستعادة لأراندا؛ وعبر جسر ريماك، كان ينظر نحو الدير، على جبل أغونيا، حيث لحق بينيتو سيرينو بعد ثلاثة أشهر من قيام المحكمة بالإذن له بالانصراف،

بقائده محمولاً على نعش.

(انتهت)



